



# الكودية

تأليف

د. نبيل راغب

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كائن صدق - الجيزة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

أخيرا أصبحت ملكة الزار المتوجة . تحقق الحلم الذي داعب خيالها وشقت من أجله عشرين عاما . إنها الآن في الخامسة والثلاثين من عمرها مجسدها المسترخى الآن على الفراش يضح بالحوية ويتدفق بالحياة . جملة الرغبات المتدفق من بشرتها البيضاء ، وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، كان مطمع كل الرجال من أصدقاء الأسطى ربحانة وجهها الله . لكنها عرفت كيف تحافظ عليه حتى نجحت في الإيقاع بكافور ابنها المستلقى إلى جوارها . فلا يعقل أن تلدغ من نفس الحجر مرتين !

كان يوم شاقا لها وله ! لقد وصلت الأسطى ربحانة عن الدنيا في منتصف الليل بعد آخر حفل لها أمام لابنة باشا سابق ! كم نصحتها بالاعتذار عن الحفل أو تأجيله أو إنابتها بغيره ؟ ! لكنها أصرت برغم ضعف قلبها وتحذير الأطباء لها من بذل أي مجهود غير عادي ! كانت حفلات الزار حياتها ودنياها ومملكتها . فيها الجميع ومن إشارتها وطوع بناتها ! كانت تمنى أن يأتيها الموت وهي جالسة على حرشها فتموت ميتة الملكات ! ويبدو أن الموت كان رهن إشارتها ، شأنه في ذلك شأن كل من حضر حفلاتها . جاءها في الليلة الرابعة أو الليلة الكبيرة في زار ابنة الباشا السابق ، حيث أعدت وليمة لم تشهد لها مثيلا من قبل . وكانت كعادتها تنوى أن تبقى وجوقتها مع باقي المدعووات حول المريضة طوال الليل حتى الصباح حين تذبح الذبائح فوق رأس المريضة التي تفتح فيها

تلتقى الدماء الساخنة التى تسيل بعد ذلك على ملابسها البيضاء .  
كانت الأسطى ربحانة تواصل الدق فى أثناء طهى الطعام ، لكن قلبها  
لم يسعفها هذه المرة فأصابها الأزمة ، وتم نقلها فورا إلى مستشفى  
قريب ، لكنها أسلمت الروح بمجرد بلوغه . فنقلت إلى بيتها الأنيق المطل  
على نيل الروضة . وفى الصباح تم إبلاغ الأصدقاء والأحباب والمريدين  
الذين جاءوا من كل أنحاء القاهرة ليشاركوا فى جنازة العزيرة الراحلة .  
سارت زوجة الأمير إلى جانب زوجة الخفير وقد جرف الحزن الجميع .  
لياليها لا يمكن أن تنسى ! الرضا والسماح بأسيادى ! قطع السكر ماء  
الورد ! روائح الطيب والمسك والبخور ! الملاءة البيضاء والخروف  
الأبيض ذو الرأس الأحمر المذبوح فى الثانية صباحا ! نصب الكرسي  
وإطلاق البخور حوله ! دقات الطبول والدفوف مع الأناشيد  
الصادحة ! الثياب الجديدة البراقة ذات الألوان المتعددة والأجساد  
الراقصة المنطلقة من عقالها يمنة ويسرة ، والمتصبية بالعرق الفواح بمسك  
المباخر وسط رضا الأسياد وسماحهم !

عادت جمالات من المقابر وقد بذلت أقصى ما فى وسعها لمواساة  
زوجها كافور الذى لم يكن له فى الدنيا سوى أمه التى أوصتها به خيرا فى  
العربة التى أقلتها إلى المستشفى . ولاشك أنها أغمضت عينها إلى الأبد  
وهى مطمئنة أنه بين يديها الأمينتين اللتين خدمتها بمتتهى الوفاء  
والإخلاص عشرين عاما . ولم يضع وفاء جمالات وإخلاصها هباء .  
وضعت فيها ثقتها بكل ثقلها ، وزوجتها من ابنها ، وفى النهاية تركت لها  
صولجانها لتمسك به ، وعرشها لتربع عليه برغم حقد المنشدة بنفسج  
التي قضت عمرها كله فى خدمتها ، وكانت تأمل أن تتحول إلى كودية

بعد أن تعدت الخمسين ، لكن يبدو أنه كتب عليها أن تقضى عمرها  
منشدة في ركاب الكودية !

أقيم سرادق ضخمة فخم سد طريق كورنيش الروضة ، وتألفت  
أنواره حتى كوبرى الجيزة . كان رحيلها فخما مثل حياتها تماما .  
اصطفت السيارات الفارهة الفاخرة للمعزين الذين جاءوا من كل حدب  
وصوب ، ليستقبلهم كافور عند باب السرادق وهو يكاد يسقط إعياء  
وحزنا وقنوطا . أما جمالات فقد تصدرت القاعة الرئيسية في الدور  
الأول من القيلا لتستقبل المعزيات الأنيقات اللاتي أبرز السواد جمال  
بشرتهن وبياض وجوههن المتطلعة في شوق ومكابدة إلى جمالات : خير  
من يواصل رسالة ربحانة ! والتي لم يكن يقلقها سوى زوجها كافور  
الذى تركته وحده ليستقبل الرجال !

ومع انتصاف الليل انصرف المعزون والمعزيات ، وأسرع العمال  
بهدم السرادق وإطفاء الأنوار المتلألئة . وأخيرا أغلقت غرفة النوم عليهما  
بعد أطول يوم في حياتهما . انفجر كافور باكيا بين أحضانها كالأطفال .  
لم يتصور الحياة يوما بدون أمه التى عمل لها مساعدا وسكرتيرا بعد  
حصوله على الشهادة الإعدادية من مدرسة المنيل . لم يشعر بميل إلى إكمال  
دراسته كما أن أمه كانت قد كتبت كل ثروتها الضخمة باسمه عند إصابتها  
بأول أزمة قلبية منذ عامين ! مما أشعل حقد بنفسج على جمالات التى  
واصلت زحفها لثرت الأسطى في كل شيء : ابنها وبالتالي ثروتها كلها ،  
في حين ظلت هى عاجزة عن التسلل إلى قلب الأسطى .

كانت الليلة حارة مشحونة برطوبة خانقة . لم تحتل جمالات بكاء  
كافور وإن استمتعت بضعفه واستكانته . قدمت إليه قرصا منوما قوى

المفعول فاستلقى إلى جوارها ممددا وإن تقلب من حين لآخر ! أما هي فلم يتسلل النوم إلى عينيها السوداءوين الواسعتين العميقتين المتألفتين بوميض حاد خاطف برغم الظلام المطبق على الغرفة والسكون المحيط بها . حاولت أن تستدعى النوم بإرادتها الحديدية كي يلمس جفونها بأنامله الرقيقة الحانية ، لكنه سرعان ما تراجع بخدره دون أن يغلق جفونها بين لجه . لم تكن تحب الاستجداء فتركته يرحل عنها وشريط حياتها بصوره وألوانه المتعددة يتسلل من ماضيها السحيق إلى الحلم الذى أصبح حقيقة وسيفا تنتقم به من كل الذين داسوا على صباها الغض حتى كادوا أن يدفنوه تحت طبقات الوحل المتكاثف لولا إرادتها وعقلها الذى لم يتخل عنها لحظة واحدة .

تذكرت يوم صحتها أبوها الفلاح الأجير المعدم من قريته أبو الغيط ولم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها . كانت كبرى إخوتها العشرة الذين أنجبهم أبوها من زوجتين . كان ينوء بالحمل الثقيل ، وبمجرد وفاة زوجته الأولى ، أم جمالات ، وبداية اضطهاد زوجته الثانية لها ، قرر اصطحابها إلى بيت ابن عمه الذى يعيش فى القاهرة واستطاع أن يكون ثروة مفاجئة من تجارة الخيش والخردة فى وكالة البلح . صحيح أنها ستكون خادمة هناك ، لكن صلة الدم ستجعل منها الفرع الفقير فى العائلة التى لا بد أن تثق فيها ثقها فى أحد أعضائها .

إنها تتذكر ذلك اليوم البعيد المدفون فى بطن الماضى كما لو كان بالأمس . لم يبت أبوها ليلته بل سرعان ما عاد إلى أبى الغيط بمجرد أن سلمها إلى ابن عمه كما لو كان يريد التخلص منها فى غمضة عين . وبالفعل لم تره بعد ذلك . لم يحدث أن جاء لزيارتها طوال السنوات

الثلاث التي عاشتها في خدمة ذلك البيت .

تفتحت عينها على حياة لم تكن تخطر على بالها . بعد الحياة في بيت من الطوب اللبن لا يحتوى على أكثر من غرفتين ، وشرب ماء الترععة الذى اعتادت نقله يوميا إلى الزير ، واللعب مع الأطفال الحفاة العراة فوق روث البهائم ، والتهام الخبز الأسود المقدم مع الجبن المشحون بكل أنواع الدود ، إلى شقة في الدور الثالث في عمارة شاهقة تطل على نيل النيل المرصع بالأشجار الضخمة وشريط الخضرة الموازى للنيل ، ودار للسينما متوغلة في بطن النهر ، تعرض أفلامها في الهواء الطلق بحيث كانت جمالات تنسلل إلى الشرفة بعد الانتهاء من أعمال البيت لمتابعة الصور المتحركة التي لم يصل منها سوى أضوائها وظلالها .

كانت راضية بعملها المتواصل منذ بزوغ الفجر وحتى حلول المساء : تنظيف الغرف ، وترتيب الأسرة ، ومسح البلاط ، وطهي الطعام الذى سرعان ما تعلمته بمهارة نادرة . كانت الشقة واسعة فسيحة من سبع حجرات مثل عدد الأولاد والبنات ، ومع ذلك استعدت الشقاء التنظيف كلما تذكرت روث البهائم والعفن المنطلق من أكوام القمامة والناموس والبق والبراغيث التي تبدأ في امتصاص الدم منذ غروب الشمس وحتى بزوغ الفجر . ولم يكن هناك ثمة حوار حقيقي بينها وبين الأبناء إلا عندما يطلبون منها إحضار جورب أو تلميع حذاء أو غسيل منديل . لكن الوضع مع بسيم الابن الأكبر كان يتطور تدريجاً إلى أن أصبح مختلفاً تماماً عن موقف إخوته .

كان بسيم في السنة الثانية في كلية التجارة عندما قدمت جمالات لتعيش معهم . كان الوحيد الذى امتزجت نظراته إليها وكلماته معها

بابتسامة عذبة تحولت بعد ذلك إلى قطع من الملمن والشيكولاته ، لم يخف معناها عن ذكائها المبكر . رأته لأول مرة براكين جسدها وتلاله وهي تبرز عالية شامخة ، مجرد بلوغها الثالثة عشرة . لم تكن في قرينتها مرآة لترى فيها نفسها سوى المرآة الصغيرة الكالحة المشروخة التي كانت أمها تستخدمها في التقاط شعيرات وجهها . أما في بيت بسيم فوجدت أكثر من مرآة بطول القامة ، وكثيرا ما انتهزت فرصة خلو الشقة لتتعري كما ولدتها أمها وتتأمل المرتفعات والمنحنيات . وتداعب الشعيرات المتكاثفة أسفل البطن وأعلى الفخذين فتشعر بتوتر لذيق يكاد يمزج جسدها إربا . لم تكن حياتها مملّة رتيبة . كانت الست عدالات أم بسيم من مدمنات الزار وحفلاته الصاخبة التي لم تكن بالشيء الجديد على جمالات التي قدمت من قرية أنى الغيط التي تخرج فيها معظم الكوديات والمنشدات في مصر ، والتي يقام فيها دورى يجتمع فيه مشاهير الطائفة ومساعدوهم للتعارف والتشاور . وكثيرا ما جلست جمالات في صباها المبكر بالقرب من أبواب البيوت التي أقيم فيها الزار لعلها تصيب قطعة من اللحم أو كعكة مغطاة بالسكر الناعم . وقد شاهدت بنفسها الأسطى ربحانة وهي تدلى نصائحها الثمينة للكوديات والمنشدات الجديديات دون أن يلحظ أحد وجودها وهي مندسة بجسدها الصغير بين المقاعد الخيزران . ولذلك لم تكن المرة الأولى التي ترى فيها الأسطى ربحانة عندما قدمت لإقامة الزار في شقة الست عدالات التي كانت تؤمن إيمانا جازما بأن الثروة المفاجئة التي هبطت على زوجها كانت نتيجة طبيعية لرضا الأسياد عن أسرتها ، وهو الرضا الذي يجب أن تحافظ عليه بكل الوسائل وفي مقدمتها إحياء حفلات الزار ، خاصة وأن زوجها عبد الفضيل كان



بشاركها الإيمان بنفس القوة والحماس .

وكانت نزهة جمالات الحقيقية التي تنتظرها بفارغ الصبر عندما تخرج مع الست عدالات لشراء لوازم نصب الكرسي استعدادا للحفل ، فتتردد معها على الموسيقى والغورية وتحت الربع لشراء المكسرات بأنواعها ، والحبوب المختلفة ، والبلح الجاف ، والسكر والصابون ، والتفاح والموز والبرتقال والشمام والعنب ، وأنواع مختلفة من الحلوى والملمن والجبن ، واللحوم المجففة ، والكعك المغطى بالسكر إذا لم يتم صنعه في البيت ، واللبن وزجاجة من الخمر ، والشموع الكبيرة والصغيرة وغير ذلك من متطلبات نصب الكرسي . وتعود السيارة محملة يقودها سائق المعلم عبد الفضيل ومساعدته في الإشراف على حركة اللوريات التي تنقل الخردة والحيش بين المخزن والعملاء .

كانت جمالات قادرة على تجاوز كل ما يعكر الصفو ، ذات مرة صفعها عبد الفضيل على وجهها ، وكثيرا ما نهرتها الست عدالات وسبتها وهددتها بالطرد ، ومع ذلك سارت الأمور في مجراها وهي تجتر بين الحين والآخر سعادتها بنظرات بسيم وابتساماته ، ومهرجانات الزار التي لا يخلو منها البيت ، والتي أوشكت أن تلتهم الثروة المفاجئة التي هبطت على عبد الفضيل الذي أوشك أكثر من مرة أن يصارح زوجته في مسألة ضغط المصروفات الباهظة ، لكن يبدو أن رعبه من غضب الأسياد كان أشد وطأة من أية فكرة يمكن أن تسيطر عليه . وهو الرعب الذي استمتعت به جمالات للغاية ، إذ لولاه لحرمت من أروع مباحج حياتها .

كان حماس جمالات في خدمة حفلات الزار حماسا متدفقا تلقائيا

لدرجة أثارت إعجاب الأسطى ربحانة نفسها ، إعجاب لم يخف على لمأحية جمالات التي كانت رهن إشارتها في كل ما تطلبه ، وعندما علمت الأسطى بأنها قريبة لعبد الفضيل بك وبييمة وقادمة من قرية أبى الغيط عرضت عليها العمل معها خلسة ، لكن جمالات ، برغم ترحيبها وسعادتها ، لم تشأ أن تخون العيش والملح على حد قولها ، مما رفع من مكانتها في عيني الأسطى ، وذلك برغم رغبة جمالات الدفينة في العمل بالزار في المستقبل بعد أن أدركت أنه الوظيفة الوحيدة التي يمكن أن ترتفع بها إلى مجتمع السادة . فقد تمست بكل أسراره وأناشيدته وطقوسه ودقاته في زمن لا يمنح فرصة للأمين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة من أمثالها . وعادت الفكرة تلح عليها أشد الإلحاح بعد زيارة قامت بها الست عدالات للأسطى ربحانة واصطحبت فيها جمالات التي بهرت بالقصر الصغير الذى تقطنه وتملكه الأسطى ربحانة ويطل على نيل الروضة ، والذى تنام فيه الآن إلى جوار زوجها كافور الذى لا يزال يتململ في نومه الثقيل . وكانت الأسطى قد استقبلتهما في القاعة التي استقبلت فيها جمالات الزائرات اللاتي قدمن للعزاء في وفاتها . إن دوامة الحياة والموت لا تترك أحدا في مكانه .

أما بسيم فقد تحولت نظراته وابتساماته إلى ملامسات عابرة كأنها أتت بمحض الصدفة . ذات مرة ربت على ثديها ضاحكا بلا معنى وبلا مناسبة ، ومرة أخرى دس نفسه خلفها في المطبخ بحجة إحضار طبق ، ومرة ثالثة كانت جالسة على مقعد خشبي صغير منخفض تدق بعض غصوص الثوم في جرن فوق بلاط المطبخ ، فاذا بها تشاهد قدميه في مواجهتها ، وعندما رفعت عينيها فوجئت بعينه تلتهمان ما بين فخذيهما

المفرجتين فأسرعت بضم ساقها ، لكنه ابتسم ومضى إلى الحمام ،  
ومرة رابعة كانت تنام كعادتها على فراشها الذي تمده كل ليلة في المطبخ .  
كانت ليلة حارة بحيث نفضت الجلباب عن فخذها واستسلمت تماما  
للتنوم . لكنها بعد ساعات لم تعرف عددها شعرت بيد تدلك فخذها ،  
وعندما فتحت عينيها رأت شيحة في ضوء المصباح الخافت في مدخل  
المطبخ ، انتابها الرعب فتململت في رقادها ، لكنه أسرع بدخول دورة  
المياه وإغلاق الباب خلفه .

لم تنم جمالات ليبتها تلك كليتها هذه تماما . فكرت كثيرا وقلبت  
الأمر على وجوهه المتعددة . نساءلت كثيرا دون العثور على إجابات  
محددة ! هل يمكن أن تستخدم جنون بسيم بجمالها وسحرها سلاحا كى  
توقع به في غرامها فيطلب يدها ، خاصة وأن أباه ابن عم لأبيه وليست  
بمجرد خادمة في البيت ؟! لكنها سمعت كلمات متناثرة من أبيه عن نيته من  
ترويجه بعد التخرج من نوال ابنة زميله بسيونى صاحب ورشة الخراطة  
الكبيرة في وكالة البلح ، خاصة بعد أن التهمت حفلات الزار كل أرباحه  
وتحولت إلى ابتلاع رأسماله ! كذلك فإن نوال هى الوريث الوحيد لثروة  
أبيها ومشروعاته ، إذ أن لها أخا وحيدا متخلفا عقليا وتم إيداعه في  
إحدى مصحات الأمراض النفسية والعصبية ! وقد تزوج أبوها مرة  
أخرى كى ينجب ولدا يرثه ، لكنه لم ينجب على الإطلاق هذه المرة .  
ولذلك أصبحت نوال مطمعا لمعظم شباب وكالة البلح ، لكن نظرا  
لصداقة العمر الوطيدة بين عبد الفضيل وبسيونى فإن الوعود استقرت  
على أن بسيم لنوال ونوال لبسيم بمجرد تخرجه !

اجتاحت جمالات غيرة قاتلة من تلك الفتاة الهزيلة ذات الوجه

الشاحب ، التي دعاها عبد الفضيل ذات مساء هسى وأسرتها على العشاء ، واضطرت جمالات إلى أداء واجبات الخدمة تجاههم . لكن الذى أسعدها أن بسيم لم يكن مهتما بالحديث إليها بقدر اهتمامه بحركات جمالات الراقصة فى غدواتها وروحاتها بين المطبخ وغرفة المائدة ، وذلك برغم جلوسه إلى جوارها . لكن الزمن الأغر كان قد كتب لهذه الهزيلة الشاحبة القبيحة ورشة للخراطة والميكانيكا تدر الآلاف ، وعمارة شاهقة من عشر طوابق تقع فى شارع القصر العينى . ومهما شاركها أمها وزوجة أبيها الميراث ، فإن ثروة نوال لا تزال تشكل إغراء لأى شاب باحث عن الحياة الرغدة . لكن أى نوع من الشباب كان بسيم ؟ هذا هو السؤال الذى كان على جمالات أن تبحث عن إجابة مقنعة عنه قبل أن تغامر بأية خطوة لا تعرف عواقبها !

طفت موجات الحيرة على جمالات : هل تصد بسيم وتوقفه عند حده أم تترك له الحبل على الغارب ولكن بحساب ؟ ! لقد بلغت الآن الخامسة عشرة من عمرها ولا يعقل أن تقضى حياتها خادمة دون ذنب جنته ! إن نظرات بسيم لا تفارق جسدها طيلة وجوده بالبيت خاصة بعد أن عطلت الدراسة فى المدارس والجامعات إلى أجل غير مسمى بعد اعتداء إسرائيل وانجلترا وفرنسا على سيناء وبور سعيد . ظل مرابطا بالبيت ليل ونهار بحجة استذكار محاضراته وكتبه برغم أن الجامعة لم تفتح أبوابها سوى شهر واحد . لكن أمه تحمست للتعقل الذى هبط عليه فجأة وجعله يستقر ويعمل لمستقبله ، خاصة أنه كان فى سنة التخرج ! واصل بسيم مناوراته وملامساته وابتساماته وضغوطه التى انتقلت من مرحلة التلميح إلى التصريح . ولم تمنع جمالات ولكن بقدر . كانت

ثقافة أنه سيجد عندها من جمال وإثارة ومتعة ما لن يجده عند نوال .  
هي على استعداد أن تخدمه وتكافح من أجله حتى يصبح رجلا ولا كل  
رجال . وقد سمعته ذات مرة يقص على أخته قصة فيلم رآه وهو في غاية  
السعادة والنشوة . فقد انتهى الفيلم بزواج ابن الأصول الغنى من خادمته  
المحميلة المثيرة التي وقع في غرامها منذ بداية الفيلم . وهي ليست بخادمة  
على أية حال من الأحوال وإنما بمثابة ابنة عمه وإن كانت لم تتل حظها من  
الحياة .

تسلل النعاس بطيئا مترددا إلى جفون جمالات وهي راقدة إلى جوار  
كافور الذي لا يزال يتقلب كأنه يعاني من كابوس ما . استراحت مرحة  
لهذا الخدر القادم الذي سيخلصها من الأحداث القديمة التي تصر على  
مهاجمتها في عنف ودون هوادة لسبب لا تعرفه . ربما لأنها اللحظة التي  
أصبحت فيها سيدة موقفها بعد رحيل الأسطى ربحانة ، والتي أفسحت  
لها الطريق للانتقام الذي ظل كامنا في أعماقها في انتظار هذه اللحظة .  
كانت على وشك أن تغفو ، لكن الانتقام السارى في عروقتها كالدماء  
الساخنة مع حدث قديم حفر في شرايين قلبها ، جعل موجة النعاس  
تنحسر عن شاطئها لتتركه تحت رحمة هجير الذكريات التي لازمتها كي  
تلتسعا بسياط من نار من حين لآخر . وها هي الآن تلتسعا أشد ما  
يكون اللسع لتترك عينيها مفتوحتين في ظلام الغرفة الذي لا يريد أن  
ينحسر حتى لا تتسل أضواء الفجر من خصائص النافذة المطلة على نيل  
الروضة .

كان المعلم بسيونى أبو نوال قد سافر إلى ألمانيا لشراء أحدث آلات  
الخراطة لورشته . وعند عودته على الباخرة القادمة إلى بورسعيد قامت

إسرائيل بعدوانها على سيناء واحتلت إنجلترا وفرنسا بورسعيد ، فاضطرت الباخرة إلى تغيير مسارها إلى بيروت لحين فتح الموانئ المصرية مرة أخرى . وتمنت جمالات أن تدك الطائرات الحربية باخرة المعلم بسيوني حتى تغرقها ! لكن شيئا من هذا لم يحدث ! فسرعان ما توقف إطلاق النار وتم الاتفاق على انسحاب القوات المعتدية من بورسعيد . وغيرت باخرة المعلم بسيوني خط سيرها حيث رست في الإسكندرية . وبمجرد عودته إلى القاهرة قرر عبد الفضيل أن يقوم بزيارته للتهنئة بسلامة الوصول ، هو وكل أفراد عائلته لإظهار مدى الإعزاز الذي يكنه له .

وفجأة سقط بسيم مريضا بانفلونزا حادة لزم على أثرها الفراش ، وادعى أنها نتيجة لإرهاقه المستمر في الدراسة ! وأسف أبوه لعدم تمكنه من زيارة عم بسيوني معهم والتمتع بصحبة خطيبته نوال ، وقرر أن يصطحبه في زيارة خاصة بعد أن يشفى . وكانت جمالات قد صدقت في أول الأمر حكاية مرضه بالأنفلونزا ، ثم بدأ الشك يساورها عندما قدمت إليه كوبا من عصير الليمون وهو في فراشه ففاجأها بطبع قبلة ساخنة على وجنتها . لكنها ظنت أنه يريد التهرب من لقاء نوال التي لم يكن يحتمل رؤيتها ، ولم تتصور أنه كان يخطط لأبعد من ذلك !

ذات عصر في منتصف ديسمبر من ذلك العام ١٩٥٦ ، والذي يبدو الآن وكأنه عام مضى منذ شهور فقط ، دب النشاط في البيت وارتدى الجميع أئمن ما عندهم من ثياب ، حتى الابنة الصغرى التي لم تكن تتجاوز السنوات الخمس من عمرها ، وسرعان ما هبطوا لزيارة عم بسيوني الذي لا بد أن يكون قد أحضر هدية لكل منهم من ألمانيا وفجأة

خلا البيت الذى لم يتبق فيه سوى بسيم وجماليات التى أسرع إلى الشرفة للتدثر بالشمس قبل غروبها الوشيك ، وإحساسها الغامض بشيء ما يسرى في الجو دون أن تدرك كنهه . كانت الشمس تفتersh سطح النهر الذى بدا وادعا من الطابق الثالث ، في حين سار بعض الشباب بمحذاته ، وجلس بعض المسنين على المقاعد الحجرية التى تطل عليه . أما العربات المنطلقة بطول طريق الكورنيش فلم تكن كثيرة وإن علت أبواقها في ضجيج متقطع . كذلك بدت دار السيينا الصيفية المتوغلة داخل النيل مهجورة ، وشاشتها صفراء في شحوب وجه نوال ، ومقاعدھا في حاجة إلى إصلاح شامل .

فجأة سمعت جمالات صوته يناديها من الداخل . دق قلبها في عنف وتجاهلته ، لكن النداء عاد أكثر علوا وحادا كالسيف الذى شق بطنها . مم تخاف ؟! إنها لا تملك ما تخاف عليه سوى جسدها ! وطالما أن الله قد جعله بهذا الجمال والتفجر ، فلا بد أن تشهره في وجه من يطلبه ، حتى تحصل على ما تطلبه أولا ! وهى لا تطلب سوى الاستقرار والزواج مثل كل البنات في هذه الدنيا ! فإذا كان بسيم يريدھا ويحبھا ، فليتزوجھا فهى قريته ولا يمكن أن تنافسها أخرى في جمالھا وسحرھا ، وكل المرايا في البيت تشهد على ذلك !

عاد النداء أكثر إلحاحا وتكرارا وتتابعا ، فلم يدق قلبها بعنف هذه المرة بل نهضت إليه في ثقة مستجدة حيث كان جالسا في فراشه وقد نفص الغطاء من على ساقيه متبرما من أنها تركه يعانى الوحدة والعزلة ، ثم طلب أن تجلس على طرف الفراش إلى جواره حتى يثرثر معها في أشياء كان يتمنى أن يفضى بها إليها منذ زمن طويل ، لم تتراجع بل نفذت ( الكودية )

ما طلبه لأنها أرادت أخيرا أن تقطع العرق وأن تسيح الدم !  
مد يده وأمسك بيدها فتركتها له ليعبث بكفها وأصابعها . اعترف لها  
بنبرات مرتعشة بعض الشيء بأن ما أصابه لم يكن أنفلونزا حادة وإنما كان  
مجرد لفحة برد عادية لم تلازمه أكثر من يومين ، لكنها أوحى إليه بادعاء  
الانفلونزا الحادة حتى يتهرب من لقاء نوال ، وحتى يستمتع بصحبته بعد  
أن تأكد أنه لا يستطيع فراقها . لم تدهش جمالات بالاعتراف بل  
سحبت يدها منه في رقة وهي تتساءل عما ينوى أن يفعله تجاهها إذا كان  
يجبها حقيقة ؟ !

جذب يدها مرة أخرى وانهاled عليها بالقبيلات الملتببة والكلمات  
اللاهثة التي تؤكد حبه وعزمه على الزواج منها بمجرد تخرجه ، فهي  
قربيته ، وحبه لها يسرى في عروقه ممتزجا بدمائه ، ولن يقف أحد في  
طريق زواجه منها ، فبعد شهر سيتخرج وسيصبح سيد موقفه .  
تحولت الكلمات إلى صمت لاهت ، فرأت جمالات الرغبة تنضح على  
عينيه مع رجائه بأن تثبت هي الأخرى حبيها له ! فليس الأمر مجرد  
كلمات أو نظرات أو ابتسامات أو لمسات متبادلة !

لم تتوقع جمالات أن تسمع أروع مما تلقته أذناها ! نطق بما نطق به  
قلبا مرارا وتكرارا ! الخوف كل الخوف الآن أن تصده أكثر من اللازم  
فيطير العصفور الذي أوشك على دخول القفص ! تركت يده تتسلل من  
كفها إلى داخل كم ردائها الواسع حتى بلغت إبطها فداعبت شعيراته التي  
نسيت اقتلاعها في آخر حمام لها . سرت الدغدغة في مسام بشرتها التي  
طلعت عليها قشعريرة طاغية . دون تفكير أخرجت ذراعه في رفق مؤكدة  
له حبيها الجارف له وأنها ستكون طوع أمره بعد الزواج ، لكنه جلس



القرصاء منكمشا دون أن ينظر إليها ولسانه المتلثم يردد كلمات متقطعة  
تعبّر عن غضبه من عدم ثقته فيه ، وأنها لو كانت تحبه فعلا لما قاومته ،  
فليس بين العشاق حواجز ، ثم طلب منها أن تتركه وحده ليأسه  
وحزنه .

وضع رأسه بين ركبتيه مثلما يجلس المتسولون فوق الأرصفة وعند  
نواصي الشوارع . تدفق الحنان داخلها كأمواج ساخنة تصاعدت منها  
الأبخرة فغامت الرؤية أمامها ، لكنها توغلت داخل الفراش حتى  
التصقت به ووضعت ذراعها على كتفه فشعر بطراوة نهدها الناهد  
وتماسكه في الوقت نفسه . تماسك للحظات ثم انفرط عقده وانفتحت  
ذراعاه لتحتويها في قبلات ساخنة ملتهبة أشعلت داخلها ناراً ذات وميض  
فسفوري لم تحترق بها من قبل . انداح عقلها إلى صخور أعماقها  
المظلمة ، واصطلى جسدها بسعير الأثنى اللافح ، فذابت بشرتها  
الشمعية تحت وابل النيران المنطلقة من فوهته .

لم تستوعب أبعاد ما جرى لها . لكنها وجدت نفسها كما ولدتها  
أمها ، وجسده العارى المتصبب عرقاً في قلب ديسمبر يطبق عليها . لم  
تلفظه بل تثبتت به ، والبركان يجمع حممه المنصهرة كي ينطلق وسط  
السحب والآهات والتنهيدات عند انطباق الأفق على كل الموجودات .  
إنه رباط الأبد ! لن يستغنى عنها أبداً ! لن تستطيع نوال أو غيرها أن  
تسقه ما يرشف الآن من رحيق الحب وعصيره الصافي !

ارتوى فارتوى إلى جوارها وهو يحدق في السقف في حيرة لم تخف  
عليها في جلستها التي تخلت عن استرخائها تدريجاً . أسرعت إلى ارتداء  
ملابسها غير عابثة بالجرح السارى بالألم بين فخذَيها ، في حين قلدها

تلقائيا دون أن تلتقى نظراته بوجهها . ضغطت على ألفاظها وهي تؤكد له أن الزواج سيصبح ضرورة ملحة عاجلة إذا حملت منه ، فتمتم بأصوات لم تتبين معانيها . كررت كلماتها وإحساس بالندم يشق داخلها كالسكين ، فهربت منه إلى دورة المياه .

عاشت أسبوعا بين الحيرة والقلق والندم والخوف والألم والأمل . كانت تقوم بعملها بمحركات آلية لم تخف عن ست البيت التي سألتها عما إذا كانت تكتم شيئا لكنها أنكرت بشدة ضاعفت من دهشتها ! أصبح أوى مفض عابر كفيف بأن يطير بها على أجنحة الرعب فأقسمت بينها وبين نفسها ألا ترضخ مرة أخرى له . وعدها بالزواج أكثر من مرة ، وفي كل مرة كان يراودها عن نفسها بالاحاح وصراحة شديدين . وبرغم أنها لم تنكر اللذة التي خدرتها تماما ، وحاولت مرارا استرجاعها في مخيلتها ، فإنها قاومت الفرق بين لججها مرة أخرى . شيء غامض داخلها أشاع فيها مس كهربي من الخوف الذي جعلها تنام على فراش الشوك . إنها لا تشك في حب بسيم لها ورغبته فيها ! لكن ما العمل إذا لم يستطع الوقوف في وجه أبيه الذي يخطط علانية لتزويجه من نوال ؟ !

كان كل يوم يمر — دون أن يطرأ جديد — عيدا عند جمالات الكن مع مرور الأسبوع الثاني تذكرت أن الطمث لم يعاودها في ميعاده ، برغم انتظامه الدقيق منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها . ظلت تنتظره كطفل يتيم يحلم بمجىء أبيه أو أمه . قبع الرعب على قسم الأيام في مرورها المتأقل مما دفعها دون أن تدري إلى أن تقف سدا منيعا في وجه كل مناوراتها ، بل أصبحت تخفي كل جزء من جسدها ، إذا أمكنها ذلك ، بعيدا عن نظراته السائلة المستجدية ، بعد أن سدت أذنيها أمام كلماته الملحة الضاغطة .

ذات ليلة استيقظت في فراشها بالمطبخ على مغص غريب يسرى في بطنها كريح أمشير الترابية . جلست في الظلام ودقات قلبها تواكب إيقاعات بطنها . تحسست نديها فبدا عليهما انتفاخ غريب ! انتهزت فرصة نوم الجميع فذهبت إلى الحمام . أضاءت النور وأغلقت الباب . كشفت عن نهديا في مرآة الحوض فوجدتهما نافرين متفخين أكثر من اللازم . وجدت يدها تلتطم خدها في صفة رددت مربعات القاشاني الأبيض اللامع صداها . أوشكت على البكاء والنحيب لكنها أمسكت خوفا من أن يستيقظ أحد .

تلملم كافور في فراشه مع شخير غير منتظم صادر من شفتيه المنفرجتين . شعرت جمالات بجسدها المشدود فوق الفراش لكنها عجزت عن طرد لجج الذكريات وأمواج الماضي التي أغرقت شاطئها حتى نضح فراشها المتبل بعرقها في تلك الليلة الحارة الخائفة .

لا تزال تشعر بآثار أصابعها الساخنة على خدها . أطفأت نور الحمام وعادت إلى فراشها لكن النوم لم يعد . لم تدر كم الساعة ١٢ تذكرت أنها كانت ليلة رأس السنة ! لكن الأسرة قضتها بالبيت بين أطباق اللحم وكؤوس النبيذ ، ونام الجميع بمجرد أن دقت الساعة منتصف الليل . فقد وضعت قيود الإضاءة على الشوارع والأماكن العامة منذ العدوان الثلاثي ولم ترفع حتى تلك اللحظة ! صحيح أن الإنجليز والفرنسيين انسحبوا من بورسعيد منذ أسبوع ، لكن اليهود ظلوا في سيناء شهورا بعدهم !

أحداث لا تمها كثيرا لكنها حفرت في ذهنها بجماء النار . تسللت إلى أنفها رائحة بقايا اللحم والسّمك المشوي في الأطباق التي صنعت هرما

فوق قاع الحوض ، والتي عليها غسيلها في الصباح . انداحت هبات المغص على بطنها الذي ضغطت عليه بذراعها دون تفكير . تراجعت كل الأفكار والمشاعر عندما رأت في جلستها شبحا يتحرك في ضوء الصباح الخافت المخفف لعنمة المدخل المؤدى إلى المطبخ . كان الشبح يتلفت يمنة ويسرة حتى اقترب من فراشها محاولا تحديد موقعه . شهق بسيم عندما سمع فحيحها يطلب منه العودة إلى فراشه حتى تمر الليلة على خير ! لكنه تحسس الفراش وجلس على حافته فقاحت من فمه رائحة النييد ! انكمشت في الركن القصوى لكن عينيه كانتا قد اعتادتتا الظلام فتبين ملامحها وهو يزحف حتى التصق بها . شعرت بسخونة جسده تشع من بيجامته الصوفية وتلفح جسدها المنتفض من البرد والخوف . صارحته بصوت أجوف من أعماقها السحيقة بأنها حامل منه وعليه أن يتزوجها ، وإلا اعترفت لأبيه بكل شيء ، فإن شرفها من شرف العائلة كلها . أحاطها بذراعه وطلب منها ببساطة أن تجهض نفسها فهو لا يمكن أن يتزوجها قبل أن يتخرج ، ثم انهال على وجهها وعنقها بالقبلات الساخنة اللزجة المبتلة وهي تتمم بأنها لا تستطيع قتل نفس .

رفسته في بطنه بساقين من حديد فوجد نفسه كومة فوق بلاط المطبخ وصرخات جنونية صادرة كطلقات المدفعية المضادة للطائرات من فمها . نهض منتصبا واندفع كالصاروخ فاصطدم بعنف في باب المطبخ لكنه منع نفسه من السقوط وذاب كفض الملح .

لم تدر جمالات حقيقة ما فعلت ! لكنها عادت إلى حواسها أو حواسها عادت إليها عندما سمعت أصواتا عالية مستفسرة صادرة من غرفة نوم والدى بسيم ، ثم وقع أقدام ثقيلة مع الأضواء التي سطعت في

الصالة وتدفت في المطبخ الذى دخله عبد الفضيل وعدالات . أضاء مصباح المطبخ فعشى بصر جمالات في جلستها وسط فراشها الأشعث وهى عاجزة للحظات عن الرد على استفسار السيد عبد الفضيل عن مصدر الصرخات وسببها ، لكنها وجدت لسانها ينطلق دون إرادتها ليقص عليه مأساة اعتداء بسيم عليها وحملها منه ، ثم محاولته تكرار الاعتداء ، وحذقات العيون تتسع وتبحظ ، والكرات السوداء تتراوح بين اليمين واليسار كبندول الساعة .

ران صمت رهيب مر كدهر وجمالات تنتفض واقفة في فراشها ، وعدالات تدق على صدرها غير مصدقة ، وعبد الفضيل يتغلب على حيرته بالتهديد بطردها فوراً إذا ثبت كذبها ، والانطلاق إلى غرفة بسيم حيث أضاء النور فوجده يغط في النوم ، بل علا شخيره في براءة الذئب من دم ابن يعقوب . تغلب عبد الفضيل على موجة الشك داخله وسعد بنظر ابنه فأطفأ النور وعاد أدراجه وقد تربعت صورتا بسيونى ونوال على عرش تفكيره .

قطع حبال الصمت بين جمالات وعدالات بتكذيبها صارخا طالبا منها أن تخرج من بيته فوراً برغم توصلات عدالات بأن ينتظر حتى الصباح . لكنه جذبها من شعرها معلنا في صراخ براءة ابنه وترينه الشريفة النظيفة ، وأن عليها أن تعود إلى الحيوان الذى أغراها أو أغرته . صرخت محاولة تخلص شعرها وطالبة العودة إلى أبيها في قريته ، لكن عبد الفضيل أكد لها أن أباه يوم أتى بها منذ ثلاث سنوات كان قد تخلص منها إلى الأبد ، وها قد جاء دوره ليتخلص منها هو الآخر ، فمكاتها الشوارع بين الساقطات والمتشردين .

ألقى بها إلى خارج المطبخ فانطلقت تعوى إلى غرفة بسيم وخلفها عبد الفضيل يلهث . هجمت عليه وأجلسته عنوة في فراشه في حين استيقظ الأولاد والبنات في الغرف المجاورة لكنهم لم يجمعوا على الخروج منها برغم فزعهم وحب استطلاعهم القاتل . تظاهر بسيم بالفزع تحت وطأة كابوس كان يمر به ، والتنبه إلى صراخها الذى يطالبه بالاعتراف بكل ما حدث ، لكنه ينظر إليها كمن لا يعى ما تقول . هزته في عنف وهى تصب في أذنيه تفاصيل ما فعله معها ثم سؤال كالسيف من أبيه عن حقيقة ما تقوله ، أنكر بسيم على أثره معرفته بأى شيء مما تدعى !

جذبها عبد الفضيل مرة أخرى من خصلات شعرها وانهاه عليها بأقذع السباب والصفعات على وجهها ، واللكمات في صدرها وبطنها فأحست بسكين صدئة تنهش أحشاءها وتمزقها . ولم تفلح محاولات تدخل عدالات لإطفاء الحريق ، في حين ظل بسيم ينتفض في فراشه ويقسم أغلظ القسم بأنه لا يدري شيئا عما قالته وإن كان على استعداد للزواج منها إذا كان في هذا إنقاذا لشرفها الذى هو شرف العائلة كلها !

سمع عبد الفضيل كلام ابنه فزاد جنونا على جنون ! جرّها من الغرفة وعدالات خلفهما لا تدري ماذا تفعل؟! في حين اختفى بسيم تحت الغطاء من أخص قدمه حتى أم رأسه . فتح عبد الفضيل باب الشقة وألقى بجمالات خارجا ثم أغلقه بهدوء . وجدت نفسها حافية وبقميص النوم الكستور تحت رحمة تيار السلم البارد . فكرت في الدق على الباب لكنها شعرت بكدمات اللطمات واللكمات على وجتها وصدرها وبطنها الذى لا يزال يئن تحت وطأة السكين الصدئة التى تصول وتجول فيه . فكرت أن تدق على باب أحد الجيران لتبیت الليلة عنده ، لكن ماذا

كان في جعبتها لتقوله وتشرحه وتفسره ؟ !

ظلت جالسة على درجة السلم وقد انطوت بجسدها المنهك على ركبتيها حتى تخفف بقدر الإمكان من آلام بطنها . عندئذ ومضت داخلها فكرة كالبرق في سماء الغيوم المعتمة قبل هزيم الرعد . تذكرت الأسطى ريحانة ودعوتها القديمة لها بالعمل في خدمتها . نهضت متجاهلة الألم جريا وراء الأمل فوجدت نفسها تعبر الشارع حافية حتى بلغت الشريط الأخضر المحاذى لكورنيش النيل .

تسلل الصقيع من قدميها إلى ساقها ليحاصر جسدها ويمتزج بالألم . كيف تذهب إلى الأسطى ريحانة بهذا الشكل وفي مثل هذه الساعة المتأخرة التي لا تعرفها على وجه التحديد ؟ ! جلست منكشمة منظوية على نفسها فوق أحد المقاعد الحجرية بالقرب من دار السينما الصيفية . كان الظلام بل الإظلام يلف المدينة بين طياته طبقا لأوامر الدفاع المدني ، التي انصاع لها القمر أيضا فاخفتى تماما ، ولم يتبق سوى أضواء السيارات المارة بصخب راكبيها الذين يحتفلون ببداية السنة الجديدة ! نظرت إلى مياه النيل خلفها فوجدتها داكنة معتمة مخيفة ! سمعت حركة في ركن قريب من مدخل دار السينما ثم مواء قطة داكنة جاءت تغطى وتقفز فوق المقعد الحجري لتتمسح بها ، فاحتضنتها جمالات ومسحت شعرها الناعم مرارا وتكرارا والدموع تسيل على وجنتيها عندما سمعت كركرة الشكر والامتنان من أنف القطة . شغلها قليلا عن آلام بطنها التي امتزجت بإحساس لزج بسائل غليظ أعلى فخذها !

هطل رذاذ خفيف جعل الشارع يلعب تحت قنوات الضياء الصادرة عن السيارات المارقة . انكشمت القطة في حجرها الذي احتمت به من

الأمطار المتزايدة التي دفعت جمالات إلى الاحتفاء بمدخل السيما . آنست القطعة وحدتها فظلت تحملها ، لكن القطعة لم تحتمل لفحات الصقيع ولطومات المطر فتملصت منها لتنزوى في الركن الذى كانت تحتمى به ! نظرت جمالات إلى السماء في تساؤل صامت : أليس لآلام البشر حدود ؟ ! في اللحظة ذاتها سطعت كشافات سيارة قادمة من الشارع المواجه لمدخل السيما ، ثم استدارت لتحاذى الرصيف وصوت من الأداخل يناديها أن تركب ! كثيرا ما رأيت مثل هذه السيارات التي تتسكع إلى جوار الفتيات السائرات في طريق الكورنيش ، ليركب بعضهن ويرفض البعض الآخر ! وهى ليست خيرا منهن ! لم يعد هناك ما تخاف عليه ! المهم أن تبيت ليلتها بين أربعة جدران ! مهما كان نوع هذا البيات ! والصبح رباح كما اعتادت أن تسمع النسوة العجائز في طفولتها في قرية « أبو الغيط » .

بمجرد أن اقتربت من الباب فتح لها . لمحت وميض عينيه في أضواء السيارات المارقة تحت طيات الأمطار المنهمرة . هناها بداية السنة الجديدة فردت بألفاظ مرتعشة لم تصل إلى أذنيه . انطلق بالسيارة وهو يتأملها من حين لآخر . بلغ كوبرى الجيزة ثم انحرف يسارا عابرا ميدان الروضة ، ثم يمينا إلى أن وقف أمام عمارة قديمة تطل على كوبرى الملك الصالح . هبط من السيارة فبعثه دون كلمات أو نظرات وهى تتحكم في قدمها بصعوبة في الوحل المحيط بالعمارة . صعدت خلفه على درجات سلم حجري فسيح ورائحة رطوبة عفنة تنبعث من بثره . فتح بابا ضخما وأضاء نور الصالة . ترددت في الدخول فأمرها . أطاعت وهو يفحصها من الرأس إلى القدم ومن القدم إلى الرأس فيما يشبه



الذهول . أخفت قدميها خلف مقعد مجاور لكنه عبر عن ذهوله من سنها الصغيرة وهو يعلق الباب . سبقها إلى الحمام وأضاء نوره طالبا منها أن تدخل وتأخذ حماما ساخنا قبل كل شيء .

أطاعته ودخلت سعيدة بابتعاده عن الباب الذي لم تغلقه تماما . شغلها آلامها النفسية عن آلامها الجسدية ومع ذلك شعرت بارتياح عندما تذكرت أنها قريبة من الأسطى ريجانة ، مجرد نصف ساعة سيرا على الأقدام على أكثر تقدير . تخلصت من ملابسها وهي تشعر بالامتنان لهذا الغريب الغامض الذي آواها تلك الليلة ، مهما كان غرضه ، فهو على الأقل أرحم من أقاربها الذين خدمتهم خدمة العبد للسيد . شهقت عندما وجدت الدماء اللزجة السميقة المتجلطة تلتطخ أسفل بطنها وأعلى فخذيها وملابسها الداخلية التي أسرعت بغسيلها ونشرها على مشجب معدني . أشعلت موقد الغاز تحت قدر كبير ملأته بالماء وأزالت الدماء . سعدت بملمس الماء الساخن الذي أزال قشعريرة جسدها المنهك وخفف من آلام بطنها التي تركزت أخيرا في الجزء الأسفل منه مما أوحى إليها بأنها على وشك الزوال .

جففت جسدها وارتدت القميص الكستور تاركة ملابسها الداخلية إلى أن تجف هي الأخرى . خرجت فوجدته ارتدى بيجامة حمراء لا تتفق مع سنه التي تقترب من الخمسين بعد أن دقت في ملامحه لأول مرة وهو جالس أمام المائدة يصب نبيذا أحمر في كوب أمامه بين بعض الأطباق المتناثرة التي لا تزال تحمل بقايا من لحم وأرز وبعض المرات . أشار لها بالجلوس فجلست أمامه . صب لها نبيذا في كوب أخرى بدت وكأنها تستخدم للمرة الثانية أو الثالثة . تجمعت الكوب وامتعاضة على

وجهها حاولت إخفاءها . لم تتضاعف آلام بطنها بل سرى السائل الساخن داخلها وشرعت في سرد قصة حاولت أن تكون متقنة قدر الإمكان ، لكنه نظر إلى ساعة الحائط القديمة دون أن يلتفت إليها وأمرها بأن تسرع ، فالفجر لم يتبق على بزوغه أكثر من ساعتين .

كان كل رعبها من أن تمنعها آلامها من إرضائه فيلقى بها مرة أخرى إلى الطريق ، فقد أصبحت خبيرة بما يريد الرجل تماما من المرأة . لكنه كان رقيقا للغاية على النقيض من بسيم ، فقد طلب منها أن تستمر في مداعبته في الفراش ، مع تدليك أجزاء معينة من جسده تحت الضوء الخافت ، قامت بالمهمة بمنتهى النشاط والهمة كخبيرة ذات باع طويل . ونفس أطول فاذا به يغط في النوم مع شخير متقطع . مدت عليه الغطاء وتدفرت إلى جواره بغطاء آخر ، لكن النوم لم يلمس جفونها فظلت تتأمل محتويات الغرفة الساكنة ذات السقف العالي .

علا شخير كافور وتكور في نومه بحيث ارتطمت ركبته بجانبها الأيمن . ربتت على كتفه محاولة إبعاده في رقة ، لكن قواها المنهكة أعجزتها فاستدارت لتنام على جانبها الأيسر في الحيز الضيق الذي تركه لها . حاولت طرد الذكريات واستجداء أطياف النعاس ؛ فغداً يوم مرهق متواصل فيه استقبال المعزين الذين لم يأتوا بالأمس ، لكن النوم كان شحيحا كالعملة النادرة .

ظلت مستيقظة حتى تسلت خيوط النور من خصائص النافذة العريضة . تسلت في صمت من الفراش إلى الحمام لكن ملابسها الداخلية المنشورة لم تكن قد جفت بعد ، ومع ذلك ارتدتها . فكرت في فتح باب الشقة والخروج خلسة لكنها خافت من أن يبلغ عنها متهما إياها

بالسرقة . آثرت البقاء إلى جواره في الفراش حتى يستيقظ ، فهي لم تلق على يديه أى مكروه . يكفى أنه أنقذها من كابوس كاد أن يقضى عليها !

تأكدت أن ما جرى لها كان الإجهاض بعينه ، الإجهاض الذى طالما سمعت عنه من الست عدالات التى أجهضت نفسها مرتين بعد إنجابها لأبنائها السبعة ، لكنه فرق شاسع بين إجهاض وإجهاض ! عموما فإن محاولة اتصالها بالأسطى ريمحانة أصبحت أكثر سهولة بعد أن تخلصت بل وتحمرت من كل وشائجها التى كانت تربطها بذلك البيت الكريه الذى تمنى أن تنشق الأرض لتبتلعه .

غفت عيناها إلى جواره ولم تستيقظ إلا لاهثة وهو مطبق عليها بجسده العارى . استجمعت كل قواها لتقهر الألم وتواصل احتمالها حتى انتهى من مهمته وتركها لتغطى جسدها بقميصها وتجلس على حافة الفراش استعدادا لمغادرة الشقة . عاد وهو يجفف وجهه مطلقا صغيرا جزلا . أخرج من درج الصوان جنبيين ألقى بهما فى حجرها ، وأخبرها أنها يمكن أن تجده يوميا بعد الحادية عشرة مساء . نهضت فى صمت فأشار إلى حذاء نسائى قديم تحت السرير وطلب منها أن ترتديه . أطاعته برغم اتساعه وغادرت الشقة وقد رسمت على عينيها الذابلتين وشفيتها الشاحبتين ابتسامة تلاشت بمجرد خلوها إلى نفسها على السلم .

كانت الشوارع تضحج بالسيارات والمارة والشمس التى اضرشتها لتجفف أمطار الليل وأحواله . حاولت التحكم فى الحذاء حتى لا يلتصق بالوحل وتجد نفسها حافية مرة أخرى . تحسست الجنبيين فى جيب القميص الكستور فسرت طمأنينة محيية داخلها ! صحيح !! لا أحد

يموت من الجوع ! حتى لو رجعت الأسطى ربحانة في وعدها لها لسبب  
أو لآخر ، فإنها لن تموت من الجوع ! ولن تنسى أيضا الليلة الماضية التي  
لن تمر أبدا كأنها لم تكن ! ستظل تزحف ، حتى لو زحفت على بطنها ،  
حتى تصل إلى أعناق الذين أذلوا لتعصرها بقبضتها الحديدية !!

عبرت ميدان الروضة في طريقها إلى كوبرى الجزيرة وقد تقلصت  
أصابع يدها اليمنى دون أن تشعر بها . إنها لم تذهب إلى بيت الأسطى  
ربحانة إلا مرة واحدة ومنذ أكثر من عام ! لكنها لم تخطئه ! فهو فيلا  
صفراء تطل على النيل قبل مقياس الروضة ، يليها بوابة حديدية ضخمة  
تسد شارع الكورنيش تماما عند نهاية الجزيرة . لكن عليها الآن أن تفكر  
في قصة مقنعة حتى لا تثير أية شبهات أو شكوك عند الأسطى . وجدت  
أن القصة التي فكرت في أن تقصها على غريب الأمس لا بأس بها .

انحرفت يسارا بجذء الكورنيش . ها هي الصنادل الصدئة المربوطة  
إلى الشاطئ الحجري لا تزال متراحة في نظام لا يعكر صفوه سوى  
بعض الأمواج التي تحدثها الصنادل المارة في وسط النيل ، فتحدث صليلا  
متعاقبا من جراء الاحتكاك فيما بينها ، ثم سرعان ما تعود سيرتها الأولى  
في السكون والركود . في المرة السابقة كانت تركب السيارة مع الست  
عدالات فلم تر ما تراه الآن بالتفصيل !

ها هي الثيلا الصفراء العريقة تبدو راسية راسخة ! مرت من  
الباب الحديدى صاعدة على درجات السلم الرخامى . ضغطت على زر  
الجرس ففتحت لها المنشدة بنفسج الباب . كم كانت صغيرة وجذابة في  
تلك الأيام البعيدة !! سألتها عن طلبها فأكدت أنه يخص الأسطى  
شخصيا ! أجلسها على أحد مقاعد القاعة التي تصدرتها بالأمس وهي

تستقبل جمهور المعزيات في وفاة الأسطى !

عادت بنفسج لتطلب منها مقابلة الأسطى . صعدت على السلم الداخلى خلف بنفسج التى تركتها تدخل إحدى الغرف المطلة على النيل والشمس الساطعة حيث كانت ريحانة تتناول طعام إفطارها مع ابنا كافور الذى لم يكن يتجاوز السابعة عشرة . ظل يتأملها للحظات مع أمه التى ركزت نظراتها على حذائها القديم الواسع ثم قميص نومها الذى لا يناسب الخروج إلى الشارع . كان منظر الجبن والمرى والزبد والبيض المقلى واللبن الحليب شهيا لدرجة تراجعت فيها آلام بطنها أمام زحف الجوع !

سألها الأسطى عن أحوال الست عدالات دون أن تغادر نظراتها حذاءها وقميصها، فانفجرت باكية وهى تحكى بين الدموع كيف أنها لم ترى سوى الإذلال والهوان فى ذلك البيت برغم أنها كانت ابنة عم لهم ، ولم يلقوا منها سوى الإخلاص والتفانى والوفاء كما شهدت الأسطى بنفسها . وما ذنبها إذا أراد ابنهم الأكبر الزواج منها ١٢ طاش صواب أبيه عندما فاتحه ابنه بسيم فى الموضوع وظل يسبها ويضربها طوال الليل بتهمة أنها التى أوحت إليه بالفكرة لأنه كان يخطط لتزويجه من نوال ابنة زميله بسيونى فى وكالة البلع !

ذكرها الضرب والهوان بما لقيته من قبل على يدي زوجها فى القرية ، والذى لم يخلصها منه سوى سقوطه تحت أسنان النورج التى قطعت جسده إربا . ولا يعقل أن يلقى بها أبوها فى القاهرة ليواصل الآخرون إذلالها وتعذيبها لذنوب لم ترتكبها ، فما هكذا يكون رد الجميل ! وأنها جاءت لعرض إخلاصها وتفانيها ووفائها فى خدمة الأسطى ، ولتأسف

لجحودها عندما تشبث بالعمل في خدمتهم يوم طلبت منها أن تتركهم .  
إن بعد نظر المعلمة وحكمتها لا مثيل لهما !

صمتت جمالات عن الكلام والبكاء وإن كانت دموعها لا تزال تنهمر  
غزيرة ! علت دقات قلبها في انتظار أن تفتح الأسطى فمها ، في حين  
لمحت كافورا وهو يتأمل وجهها وصدرها والجزء العارى من ساقها .  
انفرجت شفنا الأسطى مرحة بها على شرط ألا تعرف الست عدالات  
عن انضمامها إليها شيئا ، فهى زبونة قديمة لحفلات الزار ، ولا يمكن أن  
تفرط فيها . جاء الاقتراح على هوى جمالات فتوقفت عن البكاء مؤكدة  
أنها ستكون رهن إشارتها ، ولن يعرف أحد من طرف عم عبد الفضيل  
طريقا إليها ، فقد هربت منهم بلا عودة .

وافقت الأسطى واستدعت بنفسج كى تدخلها الحمام وتمنحها  
ملابس تليق بمن يعملون مع ربحانة ، مع تخصيص إحدى غرف البدروم  
لها . لم تكن نظرات بنفسج مريحة على الإطلاق لجمالات التى أكدت  
لنفسها عدم تهيئها أو خوفها من أية نظرات بعد أن جريت اللطمات  
واللكمات . دخلت الحمام للمرة الثانية في ظرف ساعات حيث  
اغتسلت من بقايا الدم المتجلط في حين سرى داخلها إحساس عميق  
بالارتياح جعل آلام بطنها توشك أن تتلاشى ، برغم نظرات بنفسج  
الصامته الرهية .

ترددت جمالات مع ربحانة وبنفسج على كل حفلات الزار باستثناء  
تلك التى أقامتها الست عدالات . وأظهرت جمالات من الهمة والنشاط  
والتفانى والإخلاص ما جعل قيمتها تتضاعف بمرور الأيام عند ربحانة  
برغم محاولات الدس والوقية التى لم تسأماها بنفسج . كذلك وثقت

باحتها بكافور الذى اشترك معها فى أداء كثير من المهام والخدمات الأسطى حتى تأكدت أخيرا أنه وقع فى غرامها ولم يعد يطبق بعدها منه . لكن الأيام كانت قد علمتها أن تمنح بقدر ، وأن تتأكد مقدما من الحصول على المقابل الجزى ! لذلك احتفظت بحاجز رقيق بينهما ظن أنه حاجز العفة والشرف ، وصدق قصتها عن بسيم وأبيه .

استدارت جمالات لتنام على جانبها الأيمن فوجدت كافورا لا يزال فى كوره وإن خفت شخيره قليلا . جرفها الحنين إليه فربت على رأسه قبلته فى جبينه وخده ! كم تنوق نفسها إلى إنجاب ابن له حتى تروى ظمأ الأبوة داخله ؟! كم تمنى أن يكذب الله ظن الطبيب الذى أكد لها أن العقم الذى أصابها كان نتيجة لعملية الإجهاض القديمة ؟! لم يعرف كافور شيئا عن زياراتها لأطباء أمراض النساء وأضرحة أولياء الله الصالحين حتى تنجب له ابنا ! ولولا اعتاده المطلق عليها مثل أمه تماما ، لكان قد طلقها منذ سنوات ! وها قد ماتت أمه ولم يعد له فى الدنيا سواها ! ومع ذلك ستواصل محاولاتها المستميتة حتى يحقق الله لها أمنيتها العزيزة !

لكن هل ستظل لعنة تلك الليلة الرهية تطاردها إلى الأبد ؟! هل يعقل أن تتسبب هذه الأسرة الملعونة فى إجهاضها ثم فى عقمها وتمر المسألة هكذا دون عقاب ؟! صحيح أنها تتبع أبناء الأسرة من الأسطى شخصيا ؛ وعلمت كل شيء عن تدهور أحوالها التى أشبعها كثيرا من الداخل ، ومع ذلك كانت تود الانتقام بنفسها لنفسها ! أوشك عبد الفضيل على الإفلاس أكثر من مرة ، لكن نوال بعد أن رحل أبوها وورثت عنه ثروته الضخمة ، تاركة لزوجها بسيم الإشراف على ورشة ( الكودية )

الخراطة والميكانيكا ، كانت تهرع لتسديد ديونه لإحساسها أنهم أسرتها الحقيقية بعد رحيل أبيه . فقد أخذت زوجة أبيها نصيبها نقدا ثم تزوجت مرة أخرى ورحلت معه إلى أحد البلاد العربية ، في حين ظل أخوها في مصحته القديمة دون أى أمل في علاجه من تخلفه العقلى . أما أمها فلم تحتمل صحتها الضعيفة فراق زوجها الذى كان كل شيء في حياتها ، ولم ينجب الابن الذى يحمل اسمه ويواصل مشروعاته فرحلت في أعقابه ولم يكن قد مر على وفاته أكثر من سنة .

ومع ذلك ظل عبد الفضيل على حيويته وخروجه من أزمات الإفلاس كالشعرة من العجين ، بدليل استمرار الست عدالات في إقامة حفلات الزار ، وإن كان عددها قد قل كثيرا في السنوات الأخيرة . إذا .. فضربات جمالات القادمة يجب أن توجه إلى الدجاجة التى تبيض لهم ذهباً ! يجب أن تدخل نوال دوامة الزار ، لا أن تكون مجرد رفيقة لحمايتها ! فإذا كانت الأسطى ربحانة قد شعرت في السنوات الأخيرة بأن العائد المادى من حفلات الست عدالات لم يعد مجزيا ، وأنها تفكر في الاعتذار عن إتمامها بحجة ظروفها الصحية ، فإنها بهذا لم تكن تعرف من أين تؤكل الكتف ؟! وإذا كان عبد الفضيل قد ظن أن العناية الإلهية قد أرسلت إليهم نوال لإنقاذهم من الأزمات نتيجة لرضا الأسياد عنه ، فسوف تؤكد له جمالات أن الأسياد في غاية الرضا عن ابنه أيضا ، لدرجة أنهم سيلتهمون كل ثروة زوجته حبا فيه ورضاء عنه !!

سعدت جمالات وهى تتقلب لتنام على ظهرها عندما تذكرت أن عدالات ونوال لم يأتيا ضمن المعزيات اللاتي أتين بالأمس . فهى تريد جلسة خاصة معهما ! فلا بد أنهما لم يعلما بوفاتها ، لكن سرعان ما



يصلهما الخير ويأتيان للتعزية ! انحسر الاسترخاء في جسدها النهك وهي تسأل : هل سيتعرفان عليها وخاصة الست عدالات ؟! صحيح أن عشرين سنة كفيلة بتغيير وتبديل كل شيء !! لكن ربما ذكرهما اسمها بشكلها ؟! إذا .. فليتغير الاسم أيضا ، فهي من الغد امرأة مختلفة تماما !! إنها ملكة الزار المتوجة !!

قدحت زناد فكرها بحثا عن اسم يليق بها . لقد اعتادت الكوديات والمنشآت اختيار أسماء الورود والأشجار والأزهار مثل ريحانة وبنفسج وكافور ، لكنها تريد أن تكون فريدة في كل شيء ! تريد اسما يثير المهابة في نفوس الناس الطيبين والمفترين على حد سواء ! استعرضت في ذهنها كل الأسماء الممكنة : ياسمين ، تمرحنة ، فلة ، وردة ، زهرة ، قرنفلة ..... لكنها لم تسترح لأى منها ! فجأة سطع في ظلام الغرفة الذى بدأ يتراجع أمام البشائر المبكرة للفجر ، اسم كالشهاب ، أجلسها في فراشها لفرط حماسها : أطفاف !! اسم لا بد أن يحل باللطف على عقيل كل المشتركين في حفلاتها القادمة !!

استرخت في فراشها مرة أخرى . ما أعجب حياتها ؟! خاضت مصر ثلاث حروب ، كانت كل منها نقطة تحول في حياتها ! في أعقاب عدوان إنجلترا وفرنسا واسرائيل طردت من بيت عبد الفضيل في تلك الليلة الرهيبة كى تبدأ حياتها الموقفة مع الأسطى ريحانة . وفي أعقاب النكسة الشهيرة التى احتل فيها اليهود ضفة قناة السويس أصيبت ريحانة بأول أزمة قلبية لها مما دفعها إلى الإسراع بتزويجها من ابنها كافور خوفا من أن تتركه وحيدا ، وهو الذى اعتمد عليها كلية في حياته المدللة المرفهة . وفي أعقاب حرب أكتوبر رحلت الأسطى ريحانة في الوقت الذى ارتفعت فيه

أسعار حفلات الزار أربعة أو خمسة أضعاف مع تطبيق سياسة الانفتاح ،  
وجريان الأموال في أيدي المؤمنين فعلا بالزار ، والذين لم يكن في قدرتهم  
مجرد حضور الحفلات وليس إقامتها . كذلك أصبحت ألطاف أقوى  
وأغنى وأشد سطوة لتوجه ضربتها التي ظلت تحلم بها حوالى عشرين  
عاما ! ظنت أن الدنيا دانت لها أخيرا برغم حكمة ربحانة المفضلة بأن  
دوام الحال من المحال !

لكن عليها أن تحذر بنفسج ! فكرت في التخلص منها لكنها لن تجد  
منشدة في كفاءتها وجمال صوتها ! صحيح أنها تحقد عليها حقداً أسود منذ  
أول لحظة دخلت فيها هذا البيت ! لكن ماذا يمكنها أن تفعل !؟ لقد  
أصبحت ألطاف الأمرة الناهية في كل من حولها !؟ وعلى بنفسج أن  
تتعامل مع هذا الواقع الجديد وإلا وجدت نفسها في الشارع ! ولن  
تمنحها أية كودية أخرى الأجور والهبات والمنح التي نالتها على يدي ربحانة  
والتي ستضاعفها ألطاف حتى تأمن شرها ! بنفسج ليست مشكلة  
حقيقية وإن كان الاحتياط واجبا !

أخيرا غفت عينها مع مداعبة أنامل الفجر لخصائص النافذة المطلة على  
النيل الذي شقه صندل أطلق صغيرا مزق السكون وردده الأفق ، لكن  
سرعان ما استيقظت ألطاف على هزة خفيفة في كتفها لتجد كافورا ينظر  
إليها مستجيرا بها من الفراغ الذي تركته أمه والذي يكاد أن يقتله !

(٢)

— إلى أين في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟!  
قالها بسيم وهو يفرك عينيه في فراشه عندما رأى زوجته نوال تكاد  
تنتهي من زيتها أمام المرآة التي عكست وجهها الطويل الشاحب وبعض  
خصلات من شعرها البنى الخفيف :

— الساعة تجاوزت التاسعة !

جلس في فراشه فبرز كرشه المنتفخ من فتحات البيجامة البيضاء :

— اليوم أحد والورشة مغلقة ولا داعي للاستيقاظ المبكر !

كانت نوال على وشك أن تضع أحمر شفاه لكنها — كمن تذكر شيئا  
— أعادته مرة أخرى دون أن تستدير لترد عليه :

— اتصلت بي طنط عدالات في ساعة متأخرة مساء أمس ..

وأخبرتني أنها قرأت في صفحة الوفيات وفاة الكودية ربحانة .. ولولا أن

الوقت كان متأخرا لكنا قمنا بواجب العزاء أمس !

مسح بيده صلغته الصفراء المستديرة اللامعة ، ولم تحف عيناه حنقا

كان مكبوتا :

— ألف رحمة عليها !! الحمد لله أنها رحلت قبل أن تأتي على البقية

الباقية مما نملك !

استدارت نوال بحركة سوقية فظهرت ساقاها النحيلتان :

— مالى وأنا حرة فيه ! إنك لا تصرف مليما واحدا من جييك !

استدار بدوره وأنزل ساقيه المترهلتين على حافة الفراش :

— قلبي عليك !! الحق عليّ !!

استمتعت بنبرات الخنوع في كلماته ، وترحمت على حكمة أبيها  
الذي كتب معظم ثروته باسمها فجعلها سيده نفسها ومن حولها :

— قلت لك ألف مرة أن تتحاشى غضبهم .. فلم يخلق بشر يستطيع

أن يتحداهم أو حتى يذكرهم بسخرية إلا وأذاقوه الويل والشبور !

ملس على ذقنه مفكرا في النهوض ليحلقها في حين لم تخل كلماته من

نبرة خوف دفين :

— لم أفعل شيئا من هذا القبيل ... بل إننى أريد أن أتحاشاهم تماما

بحيث نقطع كل صلواتنا بهم !

وضعت قدميها في حذاء لامع فاخر :

— من يسمعك يظن أن أسرتك أتت من باريس لتستوطن في

مصر؟! وأنها لم تعرف شيئا عن الزار بطول تاريخها الخلف؟!!

فكر في النهوض وترك الغرفة ومع ذلك واصل المقاومة المستميتة :

— ومن قال لك إننى كنت راضيا عن أفعال أمى وتأييد أبى لها؟!!

نهضت واقفة وهى تضغط على أسنانها :

— لقد حازا رضاهم ولذلك أرسلوا إليهم من أنقذهما من أزلماتهما ..

وها هى أمك تواصل التقرب منهم !

فهم بسيم ما تقصده تماما . إنها النعمة التى تذله بها كلما فتح معها

هذا الموضوع الكتيب :

— كان من الممكن أن يحافظ أبى على ثروته الضخمة التى كونها من

تجارة الخردة والخيش .. لكن أمى كانت بالمرصاد لكل ملهم ربحه .. ولم

بحاول هو بدوره أن يوقفها عند حدها لخوفه هو الآخر منهم !  
وضعت ذراعها في جانبها الأيمن مع هزة في ساقها اليمنى :  
— وتريد أنت أن توقفنى عند حدى !؟  
نهض فيما يشبه الاعتذار :

— لم أقصد هذا على الإطلاق ! وإنما قصدى أن أسمى إذا أرادت أن  
تقيم هذه الحفلات فليكن هذا على نفقتها هى .. حتى تشعر الأسياد أنها  
تضحى من أجلهم !

سعد لهذه الدبلوماسية الطارئة على أسلوبه عندما وجد زوجته تبحث  
حائرة عن إجابة مفحمة تناسب لسانها السليط :  
— إذا كان اشتراكى في حفلات أمك يضايقك إلى هذا الحد ..

فسأقيم حفلاتى بنفسى وفى شقتى !  
هبطت الإجابة على رأسه كالصاعقة لتبعثر عنقه فى كل اتجاه . ندم أشد  
الندم على هذه المناظرة التى أوشكت أن تفتح عليه فوهة الجحيم ، لدرجة  
أنه تذكر غضب الأسياد وتساءل فى صمت عما إذا كان ما يجرى فى تلك  
اللحظة نتيجة لتحديه لهم . تحرك إلى باب الغرفة وهى تتابعه بعينها  
الضيقتين اللامعتين . أراد تغيير مسار الحوار :

— وما دامت الكودية قد ماتت .. فهل تعرفان أحدا فى أسرتها يمكن  
أن يتلقى التعازى !؟

— لا بد أن تكون المنشدة بنفسج هناك .. كذلك ابنها وزوجته !!

— من المخرج أن تقدما العزاء لهما دون أن يعرفا من أنتم !!

— قابلنا ابنها أكثر من مرة .. أما زوجته فيبدو أنها كانت مشغولة فى

حفلات أخرى !

أسند ظهره إلى باب الغرفة في استسلام حزين :

— وهل هي كودية هي الأخرى ؟!

— يقولون إنها أكثر مهارة من الأسطى ربحانة نفسها .. وإن الأسياد

لا يرفضون لها طلبا .. كما أنها في عز الشباب والحيوية !

— وكيف عرفت هذا دون أن تريها ؟!

— من صديقات أقامت لهن حفلات في منتهى النشوة والبهجة !

التفت بسيم إلى خارج الباب فوجد ابنه حازم مرتديا قميصا خفيفا

أبيض على بنطلون جينز أزرق ، سأله خارجا من الغرفة وهاربا من

زوجته :

— إلى أين أنت أيضا ؟!

توقف حازم خلف أحد مقاعد الصلاة وقد بدت الحيرة والقلق على

وجهه الذي يحاكي ملاح أيه لكن في نحافة واضحة :

— أبدأ .. سأذهب إلى المكتبة للاطلاع على بعض المراجع !

— الامتحان على الأبواب .. والمفروض أن تلازم البيت لتراجع كل

محاضراتك !

أشاح حازم بوجهه بعيدا وهو يتحسس شاربه الدقيق الخفيف :

— اننى لن ألعب الكرة في المكتبة !!

— منذ التحاقك بقسم علم النفس هذا .. وأنت لم تتعلم سوى

سلاطة اللسان ؟!

ضغط حازم على حقييته الصغيرة :

— قول الحق لا يفضب أحدا !!

— كان الأجدر بك أن تلتحق بكلية التجارة حتى تشارك أباك في

مشروعاته ! لا أعرف ما قيمة علم النفس هذا !؟ إنه لا يختلف عن الزار في كثير أو قليل .

كان على وشك أن يستمر في سيل الكلمات المتدفقة ، لكن زوجته برزت من الباب في كامل لباسها :

— مشروعات من ياسى بسيم !؟

استدار باحثا عن إجابة تحفظ له ماء وجهه أمام ابنه :

— أقصد أنه لم ينضم إلى قسم علم النفس لإيمانه بهذا العلم وميله إليه ، ولكن لأنها رغبة جارتنا العزيزة التى يتبعها كظلها .. ولا أعرف إلى أين ستصل به !؟

لاحظت نوال ضيق ابنها وسخرية زوجها بجارتهم دون داع :

— لم أر أحدا مثلك في نقمته على كل الناس !

ما هذا الصباح العكر ! هذه المرة تاهت منه الإجابة لكن ابنه أسعفه بتدخله :

— لولا الدكتوراة ثريا لكنت انتحرت من زمن !

سعد بسيم بالموضوع الجديد :

— إن كلمة الانتحار فى فمك مثل اللبانة .. ثم إنها ليست

دكتوراة .. فهى معيدة تخرجت منذ ستين فقط !

.. — إنها فى نظرى أكثر من دكتوراة ! وهى الدافع وراء تفوق بعد أن

فقدت الأمل فى كل شىء !!

تقدمت نوال من باب الشقة قائلة لبسيم دون أن تنظر إليه :

— إنك خير من يجلب الحرج لنفسه ! عن إذنك !

فتحت الباب وخرجت . فى أعقابها انطلق حازم دون أن يلتفت هو

الآخر لأبيه :

— عن إذنك يا بابا !

لم يرد بسيم والباب يغلق ليظل بمفرده في الشقة . شيء مقلق داخله  
تساءل : يستأذنان كما لو كانا في انتظار إذنى !؟

على السلم طلبت نوال من ابنها أن تقوم بتوصيله إلى الكلية لكنه  
اعتذر بأنه سيذهب مع الدكتورة . لم يبد على وجهها أى تعبير أو انفعال  
بل سرعان ما استقلت المصعد الذى اختفت داخله . تحول الإحباط  
داخله إلى دقات من الانتعاش وهو يتوجه إلى الباب المقابل ويضغط  
على زر الجرس . فتح الباب كهل تجاوز الخمسين ، طويل القامة ، رشيق  
القوام ، يكلل الشعر الأبيض رأسه فيزيد وجهه مهابة وجمالا وجلالا :  
— أهلا .. سيد حازم .. تفضل .. ثريا جاهزة للذهاب إلى  
الكلية !!

لم يستطع حازم أن يتخلص من خجله وحرجه فتلعثم :  
— سأنتظرها هنا !

جذبه من يده في حيوية ابن الثلاثين :

— ادخل .. كفاك خجلا .. أليست ثريا أختك الكبيرة !؟

— طبعاً .. طبعاً يا دكتور !

أغلق الرجل الباب وتركه إلى الداخل . تأمل حازم وجهه في المرآة .  
إنها ليست أختي الكبيرة ! إنها شيء أكبر من ذلك بكثير ! إنها النور الذى  
يضىء طريقى ! كلماتها . ابتساماتها . لمحاتها العذبة ! عيناها الواسعتان  
الخضراوان المشعتان بوميض الفجر عند التقاء السماء بالبحر ! شعرها  
المتناوج بنخصلات الذهب ! أفكارها التى ترفعه من قاع اليأس إلى قمة



الأمل ! أما جسدها الجميل فلم يدنسها أبدا بأفكاره ! فهي السمو يسير  
على قدمين !

— لم أعرف أنك نرجسى إلى هذا الحد !؟

أعقت السؤال بضحكة رقيقة عذبة وهو يستدير محرجا :

— أهلا دكتورة .. لم أكن أتأمل نفسي في المرآة !! كنت في

انتظار حضرتك !

نظرت إلى ساعتها الذهبية الصغيرة وعطرها يحاصره :

— هيا بنا !!

فتحت الباب وسبقته إلى الخارج في فستانها الفستقى الخفيف ،  
وحقيبتها الخضراء الصغيرة ، وشعرها القصير الذي يجتضن أذنيها . سار  
في أعقابها وأغلق الباب . في المصعد وقف يتعبد في محرابها .

— كيف أحوالك يا حازم !؟

خرج صوته هامسا رقيقا :

— الحمد لله .. لا جديد .. بابا لا يزال يبحث لنفسه عن دور

حقيقي .. وماما تعتبر الزار قضية عمرها !

توقف المصعد فخرجا سويا عبر مدخل العمارة صوب الجراج حيث  
ركبت سيارتها البيضاء الصغيرة وحازم إلى جوارها . انطلقت السيارة في  
شارع القصر العيني ثم انحرفت يمينا صوب الكوبرى .

— لكن أمك لا تقيم حفلات في بيتها ! إنها ترافق جدتك فقط !

— سمعتها صباح اليوم تقول لبابا إنها ستقيم حفلاتها بنفسها وفي

شقتها .. وهذا يعني مصيبة جديدة .. فلا أحد يستطيع أن يقف في

طريقها .. وسيصبح البيت جحيما !!

— لو كانت أمك قد أكملت تعليمها لما تصرفت هكذا .. فهي تشعر أنها بثروتها التي ورثتها عن أبيها لا بد أن تكون الأمرة الناهية .. خاصة بالنسبة لأبيك الذي يفخر بيكالوريوس التجارة في حين أنه يعمل عندها !

— ومع ذلك اعتاد أن يترك قياده لأبيه ثم لزوجته بعد ذلك !  
— من يؤثر الطريق السهل في شبابه لا بد أن يجتاز الصعب في كهولته ! إنها كلمة بابا الأثيرة !

نظر حازم إليها في وجد وحيرة تقديس :

— لولاك يا دكتورة لكنت ضعت بينهما !

كانت نظرات ثريا ممتدة أمامها فوق كوبرى الجامعة :

— لا تقل مثل هذا الكلام يا حازم .. فأنت شاب قوى وذكى !

ابتسم حازم في خفر كالعدارى :

— دائما تشجعيننى !

بدت قبة الجامعة شاهقة والسيارة تسير بين حديقتى الأورمان والحيوان ، في حين دقت الساعة العريقة العاشرة فرددت الحديقتان صدى الدقات الجليلة . عبرت السيارة البوابة الحديدية الضخمة :

— إذا قررت أمك إقامة حفلات الزار في شقتها .. فأرجو أن تخبرني

بذلك فوراً !

ذهل حازم والعربة تتخذ موقفها أمام مدخل كلية الآداب :

— هل أستطيع أن أعرف السبب !؟

ابتسمت ثريا ابتسامتها التي تضيء ليليه الطويلة المظلمة :

— سأخبرك فيما بعد !

خرجت من سيارتها فتبعها صاعدا إلى جوارها فوق الدرجات  
: خامية الفسيحة وهو يكاد يطير فخرا وفرحا وسط نظرات الطلبة  
، الطالبات الزاخرة بالإعجاب والابتسام والعذوبة وربما الغيرة !

كانت شمس مايو تفتersh النيل والأشجار التي جددت أوراقها الضاربة في الخضرة عندما احترقت السيارة الفاخرة طريق كورنيش النيل صوب حي الروضة . جلست نوال أمام عجلة القيادة بفستانها الأسود الذي زاد من شحوب وجهها ، في حين سحبت نفسا من سيجارة مرتعشة بعض الشيء بين أصابعها . جلست إلى جوارها الست عدالات التي حمل وجهها تجاعيد جعلتها تبدو أكبر من سنها ، برغم صبغة الشعر ذات اللون البني الداكن التي احتلت رأسها تماما . كان فستانها الأسود أقل أناقة وبهاء من فستان زوجة ابنها ، ومع ذلك عكس وجهها بقايا عز غابر . تخلصت نوال من بقايا دخان في أنفها :

— يقولون إن الكودية الجديدة لا تقل في سرها الباتع إن لم تزد على الأسطى ربحانة نفسها !؟

شردت عدالات عبر النيل الذي اتسع مع توغل السيارة في كورنيش الروضة :

— أيام ربحانة ولياليها لا تنسى ! كانت قادرة على شفاء الحمول والصداع الدائم والروماتيزم والحساسية والعقم وأمراض النساء والعيون والأمراض الباطنية والعقلية .. أنا نفسي عالجتني من آلام المفاصل وخصوصا الأصابع أكثر من مرة !

— أما أنا فمجرد اشتراكى في حفلاتها جلب على رضا الأسياد ولم تقل أرباح الورشة .. وإن كان التخفيض قد جرى مرتين على إيجار

تعمارة !

— المهم رضا الأسياد .. جعل الله كلامنا خفيفا عليهم !

— آمين .. يارب !

— وأدام عليك الخير والبركة .. فلولاك لما استمرت معنا الأسطى  
مائة في السنوات الأخيرة .. خصوصا بعد أن تضاعفت أسعار  
شققنا وتكاليها أربع أو خمس مرات بعد حرب أكتوبر !  
بلغت السيارة الرمادية الفاخرة القبلا الصفراء العريقة حيث توقفت  
مامها :

— لا تقولى مثل هذا الكلام .. فأنت ماما بعد رحيل أمى .. وأنتم  
تترقن الوحيدة فى هذه الدنيا !

ربتت عدالات فى حنان دافق على كتفها . خرجت نوال من السيارة  
. أثقت عقب سيجارتها مشتتلا على الرصيف . تبعها عدالات عبر  
باب الحديدية الصغيرة وصعودا على السلم الرخامى . ضغطت نوال  
على زر الجرس فى حين كانت بوادر دموع تترقق فى عيني عدالات :

— منظر البيت لا يحتمل بدونها !

— لا راد لقضاء الله !

— ونعم بالله !

فتحت بنفسج الباب فاحتضنتها عدالات ثم نوال :

— البقية فى حياتك .. البقية فى حياتك !

— وحياتكم الباقية .. اتفضلوا .. الأسطى جمالات فى انتظاركم !

فالتها بنفسج بصوت منخفض لكن ألطاف التى كانت قابعة فى نهاية  
الليلة سمعت الاسم . سارت بنفسج وفى أعقابها عدالات ونوال اللتين

سلمتا عليها عندما نهضت لاستقبالهما . وبعد تبادل التعازى والجلوس ، شرعت بنفسج في ترك القاعة لكن ألطاف أوقفها في حين كانت عدالات تدقق في ملاحظها :

— بنفسج .. من هى الأسطى جمالات التى ذكرت اسمها لهما ! هل هناك أسطى غيرى في هذا البيت !

أخذت بنفسج على غرة فاهتزت في وقتها :

— فلتة لسان يا أسطى .. كنت أقصد حضرتك .. الأسطى ألطاف !! آسفة !!

— حصل خير .. تفضلى !

أسرعت بنفسج بالاختفاء . ركزت ألطاف نظراتها الحادة الخارقة على عدالات التى تحاشتها بالنظر إلى حذائها الأسود . كانت ألطاف قد أحالت حاجبها إلى خطين رفيعين كما لو كانا قد رسما بقلم الرصاص ، فى حين تركت شعرها الأسود الطويل الناعم ينهمر بحصلاته على عنقها وكتفها حتى تغير من ملاحظها بقدر الإمكان ، وهو التغير الذى لم يخف على عيني بنفسج الفاحصتين . رفعت عدالات عينيها فى تأثير شديد :

— رحمها الله .. تركت فراغا كبيرا فى قلوب كل عشاقها !

انتقل التأثير إلى نبرات ألطاف وهى تتفحص نوال على يسارها :

— كانت صاحبة فضل على الجميع !

لم تخل نظرات نوال لألطاف من حسد لجمالها وسحرها :

— البركة فىك .. فأنت خير من يخلفها !

— حفظك الله .. ما أنا إلا تلميذه مجتهدة لها ! رحمها الله .. راحت

ضحية زبائنها .. أصرت على القيام بكل شىء فى آخر حفل برغم ضعفها

وتجاوزها سن السبعين .. كنا في غاية الخوف عليها .. لكنها كانت قد  
منحت كلمتها لصاحبة الحفل !!

انجرفت نوال مع انفعالات الحوار :  
— إنها مشيئة الله !

عقبت عدالات وقد عادت إلى تفحص وجه أطفاف :  
— ونعم بالله !

جاءت بنفسج حاملة صينية عليها كوبان من الماء المثلج وفنجانان من  
القهوة السادة . قدمتها لعدالات ثم لنوال وهي تتبادل نظرات غير مريحة  
مع أطفاف . عادت بنفسج أدراجها في حين علقت أطفاف :

— وطعنت بنفسج في السن هي الأخرى !؟

لاحظت عدالات أن أطفاف تحاصرها بعينها النفاذتين فهربت منها :  
— الزمن لا يترك أحدا في حاله !

تساءلت نوال فيما يشبه الحرج وهي ترشف فهوتها :

— يبدو أن الحفلات ستتأخر طويلا قبل أن تعود مرة أخرى إلى  
سابق عهدها !؟

ارتاحت أطفاف لسؤال نوال :

— ليس قبل الأربعين بأية حال من الأحوال . كما أنني سأحاول أن  
أقلل نشاطي بقدر الإمكان .. فالحفلات تستهلك صحة الكودية ..  
يكفيها قبل بدء العمل أن تتلبس بأعظم الأرواح التي عليها حتى تستطيع  
أن تسيطر على من هم دونها ممن يتلبسون بالمرضى !

تساءلت عدالات بدورها وقد أتت على نصف الفنجان :

— هل يعنى هذا أنك لن تقبلى كل زبائن الأسطى ريمحانة !؟

( الكودية )

— بعد حرب أكتوبر والانفتاح وجريان الأموال في أيدي من لم يحلموا بها .. أصبح كل من هب ودب الآن يريد إقامة حفلات في بيته .. ونحن لم نتعود التعامل إلا مع زوجات البكوات وبنات البشوات .. ولذلك لن أختار إلا بنات الأصل العريق .. القادرات على دفع التكاليف الجديدة .. فطلبات الأسياد في ازدياد .. ونحن تحت أمرهم !!

ثم جذبت عنق رداثها الأسود الحريري وبصقت فيه :  
— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !  
فرددت عدالات ونوال نفس الكلمات بخشوع واضح ، ثم استطرقت نوال :

— ونحن أيضا تحت أمرهم في كل ما يطلبون !!  
ظهرت بوادر ابتسامة متسائلة على نظرات الطاف لنوال :  
— لم تذكر لى الأسطى ربحانة — الله يرحمها — أنها أقامت لك حفلات !

أجابت في حرج وهي تعيد فنجان القهوة الفارغ إلى الصينية :  
— شاركت فقط في الحفلات التي أقامتها للست عدالات !  
علا صوت الطاف في حسم مكبوت :  
— إذا .. نقسم البلد إلى نصفين .. حتى لا يغضب أحد .. حفل عندك .. وحفل عندها !!

لم تستطع نوال أن تكتم تألق الفرحة في عينيها . فهذا هو ما كانت تتمناه منذ زمن طويل .. ولم تتمكن من مفاتحة الأسطى ربحانة أو الست عدالات فيه برغم أن معظم التكاليف في السنوات الأخيرة كانت عليها .



ما أروع أطفاف هذه !! إنها تعزف أجمل الألحان داخلها !! لكن هذه  
الألحان تحولت إلى خطوط لخرج واضح على وجه عدالات التي قطعت  
الصمت دون النظر إلى إحداهما :

— أنا ونوال واحد .. إنها أعز عليّ من بناتي !

بادلتها نوال جيشانها العاطفي :

— الله وحده يعلم كم أحبك وأعزك !

استرخت أطفاف في مقعدها الوثير :

— أدام الله عليكم ما نعمه الحب .. ومتعكما برضاهم !

فجأة نهضت عدالات قائمة بكلمات لا تخلو من قلق وضيق :

— لن نثقل عليك أكثر من هذا .. فلا بد أن أمامك طابورا طويلا من

المعزيات .. ونطلب من الله ألا يريك مكروها أبداً !

اضطرت نوال إلى الوقوف في حين نهضت أطفاف في وقار ومهابة :

— إذا كانت الأسطى ربحانة قد رحلت عنا بجسدها .. فروحها لا

تزال تعيش بيننا .. ويجب ألا نحزن عليها مثل الناس العاديين .. فقد

ذهبت إلى الذين أحببتهم وأحبوها !

ومضت عينها بيريق نافذ ثم تحركت تجاه باب القاعة وفي معيتها

عدالات على اليسار ، ونوال على اليمين . عند الباب التفتت إلى نوال :

— اتصلى بى بعد الأربعين حتى أحجز لك ميعادا قبل الزحام !

مدت نوال يدها بالسلام في انحناءة سجلتها عينا عدالات التي أعقبتها

بانحناءة أشد حتى لا تستأثر نوال برضا الأسياد . فتحت أطفاف الباب

وقد كتبت ابتسامة ساخرة في أعماقها عندما تذكرت الليلة التي لا

تنسى ، وتمنت أن تكون هذه الانحناءة من عبد الفضيل وابنه بسم !

خرجنا إلى العربة الفاخرة التي انطلقت بها نوال بجذاء النيل وتحت  
الشمس الساخنة . لاحظت نوال صمت عدالات وشرودها :  
— أرجو ألا يكون اقتراح الأسطى الطاف قد ضايقك !! فلم أعود  
على صمتك !

استدركت عدالات خارجة من بين طيات شرودها وقلقتها :  
— أبدأ .. فقد ارتحت لهذا الاقتراح لأن سن عبد الفضيل الآن لم تعد  
تسمح له باحتمال مجهود الزار ودقات دفوفه .. آخر حفلة لنا ترك فيها  
البيت إلى بيت أخيه كما تعلمين !!

— ستكونين عروس الزار أيضا عندي !

— لن آخذ زمني وزمن غيري !

توقفت السيارة عند إشارة المرور فأشعلت نوال سيجارة :  
— أنت الخير والبركة !

انطلقت السيارة مع كلمات عدالات الحائرة :

— ما يجيرني .. أمر قد لا يخطر ببالك .. فعندما نطقت بنفسج باسم  
جمالات عند وصولنا .. تذكرت بنت فقيرة من أقارب عبد الفضيل  
جاءت للخدمة عندنا منذ زمن بعيد .. وكانت تحمل الاسم نفسه !  
أطلقت نوال نفسا صافيا من أنفها :

— جمالات اسم شائع .. كما أن الأسطى الجديدة تدعى الطاف !

— كنت قد سمعت من الصديقات اللاتي أقامت هن حفلات أن  
اسمها جمالات فعلا !!

— الأسماء لا تهم في قليل أو كثير !

— هذا صحيح ! لكن ما العمل إذا قلت لك أن ملامحها تذكرني

بتلك الفتاة الصغيرة التي عملت في خدمتنا !  
تأكدت نوال من أن أوهام الأبحاد الغابرة قد أثارَت زوبعة في عقل  
الست عدالات :

— أنا شخصيا لا أتذكر ملاح الأشخاص الذين قابلتهم بالأمس !  
شردت عدالات عبر النافذة .

— يجوز !! يخلق من الشبه أربعين !

وقفت السيارة الفارهة أمام العمارة التي أصبح لونها حائلا بحيث  
أصبح من الصعب تمييزه في حين تحطمت بعض أجزاء سور الكورنيش ،  
وفقد النيل سمرته في سيره الوئيد بين ضفتين علاهما صداً أخضر قائم !

(٤)

— إلى متى سترفضين كل شاب يتقدم لطلب يدك؟!  
سألت مدام كوثر السؤال دون أن ترفع عينها عن الجريدة الإنجليزية  
التي كانت تقرأها وسط الأطفال الذين يجرون حول المائدة في حديقة  
النادى وضحكاتهم تثير البهجة مع تمايل الزهور وسط هبات بعض  
النسمات الرقيقة!

وضعت ثريا الكتاب الذى كان فى يدها على المائدة ونظرت إلى أمها  
بابتسامة عذبة :

— تتكلمين مثل الأمهات اللاتي لا هم لهن سوى تزويج بناتهن فى  
بيت العدل !!

— تعلمين أنتى آخر أم فى مصر تفكر مثل هذا التفكير ! لكن  
رفضك للطابور الطويل الذى تقدم لطلب يدك كان بحجة انشغالك  
بدراستك .. وأنا لا أجد تعارضا بين الدراسة والزواج .. خاصة وأنتك  
تخرجت منذ سنتين !

لمحت ثريا عاشقين صغيرين يسيران الهوينى تحت ظلال بعض  
الأشجار البعيدة :

— لن أتزوج إلا ممن يطلبنى لعقلى وليس لمجرد منظرى !! فأنا لا أقبل  
أن أكون مجرد قطعة أليفة فى بيت زوجى !

ومضت عيناها الحضروان اللتان ورثتهما ابنتها عنها وكذلك  
خصلات الذهب المتناثر مع دقائق الهواء . ابتسمت عندما تذكرت أنها  
كثيرا ما قالت لها إنها تزوجت أباهما بناء على اللقاء الفكرى والتوافق العقلى

بينهما ، ثم جاءت المظاهر والشكليات في المقام الثاني أو الثالث ، ومع ذلك سألتها متخابثة :

— ألم يخرج واحد من هذا الطابور يعبر عن إعجابه بعقلك !؟  
— كل واحد منهم كان معجباً بذكائه وجاذبيته وعبقريته التي لا يمل الحديث عنها .. ومن حين لآخر ينوه بانبهاره بجمالي وسحري ..  
ولذلك لم يحدث أى لقاء فكري أو توافق عقلي .. فالكتاب يقرأ من عنوانه !!

استرخت الأم مستمتعة بنضج ابنتها . كانت ساقاها الرشيقتان في ينظلون أسود ضيق فوضعت ساقا على ساق :

— لكن عنوان الكتاب الذى معك لا يشجع على القراءة !؟  
أشارت ثريا إلى كتابها على المائدة وقبل أن تفتح فيها مستفهمة  
استأنفت أمها الحديث :

— لا أقصد هذا الكتاب !

ابتسمت ثريا دون أن تضحك :

— تقصدين حازماً !؟ إنه ولد طيب ونقى للغاية ! ويشعر معى  
بالطمأنينة والثقة بالنفس والأمومة التي يفتقدها في أمه !!  
— إنها محدثة نعمة جاهلة ورثت الكثير عن أبيها !! ولا بد أن ثروتها  
قد تضاعفت مع الانفتاح الاقتصادى الذى فتح أبوابه لكل الطفيليين  
والانتهازيين وصائدى الثروات في غفلة من الزمان !

— لكن جهلها فتح لها بالوعة الزار التي تستنزف أموالها أولاً بأول !

ابتسمت مدام كوثر في سخرية :

— رزق الهبل على المجانين !

— وعلمت من حازم أنها قررت نقل حفلات الزار من شقة حمايتها إلى شقتها !

شبهت الأم وهي تضع نظارتها الشمسية على عينيها :  
— غير معقول !! هل أتى اليوم الذى تقام فيه حفلة زار فى الشقة  
المقابلة لنا .. فلا نستطيع الراحة أو النوم مع دقات الدفوف المسعورة  
والأناشيد المتشنجة ؟!

— الشقة شقتهم وهم أحرار فيها .. كما أنهم أصحاب العمارة كلها !  
— سأبلغ الشرطة !

— القانون لا يمنع إقامة حفلات الزار !  
— والعمل ؟!

— أبدأ .. أنا شخصيا سعيدة بهذا التطور !  
استدارت الأم لتواجهها وقد اتكأت بمرفقها على المائدة الصغيرة  
ومفرشها ذى النقوش الفرعونية :  
— أتمرحين ؟!

— إطلاقا .. فقد ظللت سنة كاملة أبحث عن موضوع لرسالتى  
للماچستير فلم أجد موضوعا أكثر جدة وإثارة وعمقا من التفسير  
النفسى لظاهرة الزار فى مصر !

— لأبيك عيادة كبيرة للأمراض النفسية والعصية .. ومليئة  
بالحالات المتعددة الجاهزة للدراسة .. وتذهيب للجرى وراء هذا  
الدجل !!

— معظمها حالات تقليدية .. وشبيهة بتلك التى يصاب بها المرضى  
فى بلاد أخرى تعانى من ضغوط العصر المتزايدة !! أما بالنسبة للدجل ..

فإذا لم يسع علم النفس جادا لكشفه وتعريفه والقضاء عليه فلا لزوم له !  
— إياك أن تقولى إنك مستشاركين فى حفلات هذه المعتوهة على  
سبيل الدراسة والتحليل !؟

ازدادت خضرة عينها لمعانا وبريقا :

— قضيت الشهرين الماضيين فى البحث عن مراجع للدراسة ..  
فاكتشفت أن الممارسة العملية هى مرجعى الأساسى !  
خلعت الأم نظارتها الشمسية وقد بدت بوادر الإثارة فى عينها  
اللامعتين :

— لكن لا بد أن تكون لديك من المعلومات ما يساعدك على حضور  
هذه الحفلات حتى لا يشك أحد فى الهدف من وجودك !

— من المراجع القليلة بل والنادرة التى اطلعت عليها عرفت أن كلمة  
زار هى كلمة أمهرية وتعنى عند الأحباش شر ينزل بالإنسان .. وهناك  
تفسير آخر يقول إن كلمة الزار من الزيارة التى يقوم بها الجن  
للآدميين .. لكن اتصال العرب بالأحباش أوجد أفكارا مشتركة بينهم  
كالجن والرقبة والتطير والزار الذى لم يظهر فى مصر إلا فى القرن التاسع  
عشر بعد الفتح المصرى للسودان حين هاجر بعض الأهالى من السودان  
إلى مصر ونقلوا معهم الظاهرة بكل ما تحويه من طقوس وألفاظ غريبة  
على اللغة العربية !

بدا الاهتمام المتزايد والمتصاعد فى عينى الأم وحركاتها :

— إنك تأخذين الموضوع بمنتهى الجدية .. من يسمعك يقل إنك  
تؤهلين نفسك لتصبحى كودية !؟

أنهت الأم تساؤلها بضحكة مرحة شاركتها فيها ثريا :

— ولم لا؟! الكودية تريح أضعاف أضعاف دخل أستاذ الجامعة!!  
— كثيرا ما سمعت عن الكودية .. ومع ذلك لم أعرف معنى  
اللفظ!!

وضعت ثريا ساقا على ساق ونفضت ذيل فستانها الوردي عليهما :  
— واضح أن هذا اللفظ من أصل غير عربى .. ويرجح البعض أنه  
اشتق من كلمة « كادو » وهى الاسم الذى يطلق على أحد الأسياد  
الخطيرين أو سلطان الجن الأحمر !

انزلق مرفقا الأم إلى ما يقرب من منتصف المائدة :  
— وهل فى استطاعة أية امرأة أن تحترف هذه المهنة الغريبة؟!  
— الأسياد هم الذين يحكمون عليها بأن تقوم بهذا العمل!!  
— كيف؟!

— يتلبسونها لفترة طويلة بحيث لا يمكن أن تشفى إلا على يد كودية  
قديمة تعرف من عليها من أسياد ينطقون من خلالها بمطالب معينة .. وبعد  
أن تحققها لهم جميعا تفوز برضائهم .. فإذا طلبوا منها بعد ذلك أن تعقد  
العقد وتتحزم .. فإنهم بهذا يحكمون عليها بأن تكون كودية .. بمعنى أن  
الوفاء بكل مطالبهم يلزمها بعد ذلك بأن تحضر جنبها ذهبيا من عملة  
قديمة ثم تذيب دجاجة سوداء وتدهن جسدها بدمها وكذلك الجنيه الذى  
يبخر ويربط فى قماش أبيض على شكل حزام يبخر أيضا ثم تلبسه وتبخر  
فى حفل زار كبير . وعليها أن تلبس هذا الحزام دائما وإلا حل بها أذى  
الأسياد!! وغالبا ما تكون الكودية ابنة كودية أو مساعدة لها!! وبذلك  
تكون بنت بخور منذ صغرها!!

تخلت مدام كوثر عن استرخائها تماما :



— إنه عالم غامض سمعت عنه كثيرا . لكننى لم أختبره أبداً !!

— وقد آن الأوان لاختباره !

— وهل تمارس الكودية طقوسا مقنعة على الأقل ظاهريا .. أم أن

الجهل المتفشى بين الحاضرات يجعل هذا الدجل مقبولا ؟!

أغلقت ثريا الكتاب الذى كان مفتوحا أمامها :

— الكودية عندما تخاطب المريضة فهى لا تتكلم بنفسها وإنما الأسياد هى

التي تتكلم .. وهى أحيانا تتكلم العربية وأحيانا أخرى تتكلم بلغة الزار .. وهى

لغة لا يفهمها أحد سواها ثم تترجمها بعد كثير من الرجاء والإلحاح!

شردت الأم ببصرها عبر الحديقة المعبقة بعطر الزهور :

— كيف يستمر هذا الدجل ونحن فى الربع الأخير من القرن

العشرين ؟! لابد من قانون يمنع مثل هذه الظواهر المرضية ؟!

— القوانين لا تستأصل مثل هذه الظواهر من جذورها .. فبرغم

قسوة القوانين المطبقة على تهريب المخدرات والاتجار فيها مثلا .. لا تزال

هذه الظاهرة متفشية .. العبرة بالتوعية الفكرية والتنوير العقلى ..

فالشعوب تتقدم بتطبيق العلوم على حياتها وليس بسن المزيد من

القوانين !

— وهل تعتقدون أن دراسة مثل هذه التى تنوين القيام بها كفيلة

بمحاربة هذه الظاهرة ذات الجذور القديمة ؟!

— إضاءة شمعة خير من سب الظلام !

تعجبت مدام كوثر لابنتها التى جمعت بين الجمال والحكمة فدعت لها

فى قلبها بالتوفيق والمستقبل المشرق :

— يبدو أن الحديث المثير سيمرّق الوقت .. هيا بنا .. أحشى أن

يصل أبوك إلى البيت قبلنا !

نظرت ثريا إلى ساعة يدها الدقيقة وابتسمت :

— على كل حال .. الطعام جاهز !

نهضت الأم وهي تضع الجريدة في حقيبة يدها :

— التمام الشمل أفضل ألف مرة من الطعام الجاهز مهما كان لذيذا !

وضعت ثريا كتابها في حقيبة يدها هي الأخرى وسارت في أعقاب

الأم فوق المر الحجرى بين المساحات الخضراء :

— كنت ألهث وراء المراجع في المكتبات .. مثل كل الباحثين

والدارسين .. والآن جاءني المرجع الأساسي حتى لا أتكلف مجرد

الانتقال من بيتي !

— وهل عرف بابا بهذا الموضوع !؟

— عرف وتحمس له للغاية ! فهو من أنصار تطبيق العلم على حياتنا

العملية ! وتمنى أن يحضر حفلا من هذا النوع !

— لكنني أعلم أن مثل هذه الحفلات قاصرة على السيدات !

— أحيانا تكون الكودية رجلا .. وأحيانا أخرى يشارك الرجال في

الحفل حتى لو كانت الكودية امرأة .. لكن هذا يعد استثناء من

القاعدة !

مرتا بحمام السباحة حيث كانت الأجساد الجميلة شبه العارية تتألق

بيللورات الماء المنزلة عليها ، أو تقفز كالأسماك النحاسية من على السلم ،

أو تستسلم تماما لمداعبات الأشعة الذهبية . التفتت الأم لابنتها :

— عجيب أمر مصر .. تجمع بين أكثر مظاهر الحضارة الأوربية

حادثة وأكثر مظاهر التخلف الفكرى قدما !

ظهرت بوادر ابتسامة ساخرة على وجه ثريا :

— لكن يبدو أن الأمر في الحالتين لا يتعدى حدود المظاهر .. فمثلا تقام حفلات الزار في كثير من الأحيان للمباهاة وإظهار القدرة على الإنفاق بالإضافة إلى الرغبة المستمرة في تقليد الأخريات والتفوق عليهن .. فإذا كانت فلانة قد دعت في حفلها السنوي مائة سيدة فالأخرى تكون أكثر سعادة إذا دعت مائتين وهكذا !!  
توقفنا أمام سيارة ثريا البيضاء الصغيرة :

— وبالطبع فإن هذه فرصة ذهبية للكودية كى تبتز كل الأموال الممكنة من الجاهلات اللاتي لا يعرفن قيمة ما يملكن !!

ركبت ثريا سيارتها وإلى جوارها أمها . انطلقت خارجة من بوابة النادى ووسط ضجيج السيارات المحيطة بها قالت الأم :

— وهل علمت نوال برغبتك في حضور حفلها ؟!

— سعدت للغاية عندما أخبرها حازم .. وأعلنت عن ترحيبها بكل الأحباب والجيران !

— طبعاً !! فقد أكد لها هذا أن مملكة الزار يمكن أن تشمل ذوى الثقافة والتعليم الراقى أيضا !

— وماذا يمكن أن يحدث لو قرأت رسالتى للماجستير بعد ذلك ؟

— اطمننى .. فالقراءة لا وجود لها في حياة مثيلاتها !

— يكفينى حضور حفل أو اثنين .. حتى ألم بكل المظاهر والإجراءات المصاحبة للطقوس المختلفة !

التفتت مدام كوثر فجأة إلى ابنتها :

— سأحضر معك الحفل القادم !

ذهلت ثريا لدرجة أن السيارة كانت على وشك أن تصطدم بأخرى  
أمامها عند إشارة المرور :

— كيف تحضرين حفلا لا يثير في نفسك سوى الاشمئزاز ؟!

— لست أقل منك حيا للدراسة والمعرفة !

انطلقت السيارة مع الضوء الأخضر :

— لكن أعصابك يا ماما لا تحتمل الزحام والضجيج .. أتذكرين

الليلة التي سهرنا فيها في النادي الليلي ؟! واضطررنا للعودة إلى البيت

مبكرين بسبب الحالة العصبية التي انتابتك نتيجة للموسيقى الصاخبة

التي كانت تصم الآذان ؟!

غلف الإصرار نبرات الأم :

— على أسوأ الفروض يمكنني أن أعذر وأنسحب إلى شقتي في أي

وقت أثناء الحفل !!

ابتسمت ثريا ثم ضحكت متسائلة :

— ألا تخشين غضب الأسياد ؟!

شاركتها ضحكتها المنطلقة :

— دستور يا أسيادي !! الرضا والسماح يا أسيادي ؟!

— هل ألقيت بماء على الأرض في المساء دون أن تقولى : دستور يا  
أسياد !؟

حاولت نوال أن تتذكر لتجيب على سؤال الأسطى أطفاف :  
— منذ أسبوع سقطت من يدي كوب كانت مملوءة حتى منتصفها  
بالماء .. ونسيت أن أقول دستور يا أسياد !  
غطت مسحة من الأسف والأسى وجه الأسطى أطفاف وهى قابعة  
في مقعدها الوثير في غرفة مكتبها بالدور الثاني التى تطل على النيل الذى  
ترقرقت مياهه تحت المصاييح المصطفة على ضفتيه :

— وهل خبطت الأرض بقدمك في المساء دون أن تحترسى !؟

ازداد وجه نوال خشوعا وشحوبا وقد عقدت ما بين حاجبيها :

— لا أتذكر شيئا من هذا القبيل ؟

تألق الخاتم الماسى في أصبع أطفاف فملأت عينها به :

— هل صرخت في دورة المياه أو في أى مكان مظلم !؟

— لم يحدث !! كما أننا نترك دورة المياه مضاءة طوال الليل !

لم تسترح أطفاف لإجابات نوال العفوية :

— هل تعمدت التطيب والتعطر كل مساء قبل أن تنامى !؟

تحول الذبول في عيني نوال إلى لمعان مشوب بالخوف النامى :

— أفعل هذا دائما !!

ثم تعلقت عيناها بشفتى أطفاف :

— ألا تعلمين أن الأسياد يحبون الأجساد النظيفة المعطرة الطاهرة

فيحلون بها !؟

كانت نوال على وشك الانتفاض في جلستها على أثر قشعريرة سرت في جسمها كله . زاد الضوء الخافت ورائحة البخور الغامضة الخفيفة من رهبتها في الغرفة الساكنة التي رددت صدى كلمات نوال المتسائلة في همس أجوف :

— هل هناك خوف على مني منهم !؟

ومضت عينا ألطف برغم ضوء الأياچورة الزرقاء الخافتة :

— سنرى .. هل حدث أن نمت وأنت باكية !؟

فرحت نوال بالسؤال وهي تحاول إيقاف جحافل الخوف :

— لم يوجد الإنسان الذى يمكنه أن يفعل بى هذا !

اغتاظت ألطف لهذه الثقة الطارئة على نوال التى تزوجت من ذلك المعتوه الذى تسبب منذ عشرين عاما فى أن تقضى ليلتها ذبيحة وليست باكية فقط :

— هل ذكرت أسماء الأسياد بشيء من السخرية وعدم الاحترام

اللائق بهم !؟

— لم يحدث هذا على الإطلاق !

خفف الهواء المكيف من حنق ألطف التى استعادت سيادتها على

الموقف :

— هل كررت النظر إلى المرأة فى الليل !؟

عادت القشعريرة لتجتاح كل مسام بشرتها :

— هذا يتكرر فعلا .. عند الخروج ليلا .. وقبل النوم !

استرخت ألطف فى رداها الأبيض الحريرى الذى يكاد يفترش

نزلت تحت قدميها ، واستنشقت العطر الذي كمن شذاه بين طيات  
مرها الأسود الناعم اللامع المسترسل على ردايتها الأبيض . ركزت  
فيها الواسعتين يبريقهما الأسود الممزوج بوميض الفضة على شحوب  
نوال :

— إن شحوب وجهك نتيجة لعدم رضا كادو سلطان الجن الأحمر  
منك ! وستأكد من ذلك بعد كشف الأثر !

صمتت ألطاف لتستمع بالرعب الناضح من عيني نوال ، والراقص  
على شفتها العليا . لم تحتمل الصمت الرهيب فتساءلت :

— هل الأمر قاصر على مجرد الشحوب !؟

— هذا يتوقف على ما تشعرين به !

تحولت القشعريرة إلى اهتزازة في مقعدها :

— لا أعرف ما أشعر به بالضبط .. لكنني أظن أحيانا أنني مصابة

بالحمول وعدم القدرة على الحركة بنشاط !

— يبدو أن الأمر قاصر على عدم رضا سلطان الجن الأحمر عنك ..

أما سلطان البحر وابنته سفينة ثم ياور بك ور كوشة وماما وأبو الغيط وأم

الغلام فسنأكد من رضاهم عنك فيما بعد !

شعرت نوال أنها التصقت بمقعدها :

— دستور يا أسيادي !! نظرة يا أسيادي !

انتصبت ألطاف في مقعدها كملكة على عرشها :

— سنبدأ بكشف الأثر .. هل أحضرت قطعة من ملابسك والمبلغ

الذي حددته لك !؟

فتحت نوال حقيبتها بيد مرتشعة وأخرجت لفة صغيرة من القماش

( الكودية )

الأبيض وقدمتها لألطف التي وضعتها على المائدة الصغيرة إلى جوارها  
وهي تعلق بوقار ومهابة :

— سأضع هذا الأثر تحت وسادتي قبل أن أنام .. وسأظل أتلو من  
التعاويد الخاصة حتى يتراءى لي في الحلم ما بك من أمراض وعلل ..  
كذلك سأشركك في عملية الرؤيا نفسها !  
تساءلت لاهثة بقلب واجف :

— كيف ؟

— ضعى في فمك قبل النوم قطعة من السكر .. واشربى قليلا من ماء  
الورد .. ثم ضعى بالقرب من رأسك وأنت نائمة رغيفا من الخبز عليه  
قليل من الملح والسكر حتى تحصلى على رضا الأسياد عندما ترين في المنام  
ما يلزم لصرف غضبهم عنك !

تضاعفت رعشة نبراتها الخارجة من حلق جاف :

— وإذا فعلت كل هذا ولم أر شيئا !!

— لا تحملى هما .. سأرى بنفسى كل شيء لك !!

ربت ألطف على كتف نوال فانتفضت ثم تماسكت :

— وهل هناك أشياء أخرى مطلوبة منى ؟! ومتى أقوم بها ؟

— قبل القيام بأى شيء .. سأملى عليك رويشة كى تحضرها وأعدّها

لك لبدء العلاج فوراً .. هل معك ورقة وقلم ؟!

— أظن ذلك !

فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة وقلم واستعدت لما ستمليه عليها  
الأسطى التي التحف صوتها بأردية الوقار :

— دهن بلسان وبخور جاوى ومستكة تركى ومرّ بطارخ وبرشام



خميرة بيرة مع غسل أسود .. وسأقوم بتحضير هذه العطارة المركبة  
بنفسى بعد أن أضيف زجاجة ماء ورد إلى دهن بلسان .. عليك بدهن  
جسمك ثم الاستحمام وإلقاء الماء بين ثلاثة مفارق .. وبعد ذلك  
تبخرين ببخور جاوى !!

انتهت نوال من كتابة المطلوب بخط كبير ردىء زاجر بالأخطاء  
الإملائية لكن من السهل عليها أن تقرأه :

— ومتى يتم كشف الأثر !؟

— ليس قبل ثلاثة أسابيع من تناول الدواء والتأكد والثقة من مطالب  
الأسیاد وما يغضبهم وما يرضيهم !

— غدا .. سأحضر كل طلباتك !

— خير البر عاجله .. وكيف حال الست عدالات !؟

فوجئت نوال بالسؤال فأجابت دون تفكير :

— تهديك السلام !

— هل شعرت بالغيرة من انتقال الحفلات إلى بيتك !؟

— لا أعرف على وجه التحديد !

نهضت أطفاف سائرة حتى زجاج النافذة المطلة على النيل :

— إنها لن تأخذ زمنها وزمن غيرها !

ثم استدارت لترى وقع كلماتها على وجهها الشاحب وهى تجيب فى

قلق لاهث عندما انتفضت واقفة هى الأخرى :

— إنها تصر على حضور حفلاتى !

— الجميع يخافون غضب الأسیاد !

وضعت نوال الورقة والقلم بحرص شديد فى حقيبتها ومدت يدا

مرتعة بالسلام، ثم استأذنت فلم تقم أظاف بتوصليها إلى باب القيلابل  
ظلت في غرفتها تستمع إلى إيقاع أقدامها المتباعدة ، وتستمتع بإطلالتها  
على النيل من عل ! سمعت صوت أقدام خفيفة خلفها ، فاستدارت لتجد  
كافورا الذى لم يتخلص وجهه من مسحة الحزن . سألته :

— ألا زلت حزينا؟! إن المرحومة تعيش معنا بروحها !

وقف إلى جوارها مجلبابه الأبيض الفضفاض :

— ليس هذا فقط !

شعرت ببوادر خطر كامن في نيراته فتصنعت اللفهة عليه :

— خيرا ! .. هل حدث مكروه؟!!

— أبداً .. إنه الموضوع القديم الذى طالما تحدثنا فيه !!

آه .. إنه يضرب على الوتر المشدود داخلها دون أن يعرف

استرخاء :

— كل شيء باذنه !

— ما يدهشنى كيف تقصدك النساء طلبا للإنجاب فى حين —

كان على وشك أن يكمل جملته ، لكنها وضعت يدها على فمه :

— حرام أن تقول مثل هذا الكلام ! إنك بهذا تغضبهم !

أشاح بوجهه كطفل يحاول عدم مواجهة محدثه :

— عاشت أمى عمرها كله غنى خدمتهم ثم زوجتى من بعدها ..

أليس من حقى عليهم أن أرزق بولد مثل كل الآباء؟!!

احتوته فى وقتها أمام النافذة تحت ذراعها :

— نحن نخدم لهم .. والخدم ليست لهم أية حقوق على أسيادهم !

لا يزال يشيح بوجهه كأنه يخاف النظر فى عينها :

— أوشكنا على أن نتم عشر سنوات من زواجنا .. ولم يتحقق  
نتم .. لدرجة أن أصدقاء المقهى اتخذوا منى موضوعاً للتندر  
والسخرية !

لعنت إلهي في قلبها ! لماذا يصبر هذه الليلة على تذكيرها بالجرح  
الذي طالما حاولت نسيانه وتجاهل آلامه ؟! آه يا بسم الكلب ! لا بد أن  
يدفع ثمن ما اقترفته يداك ! لن تهرب من العقاب بعد أن أكد لي أكثر من  
المسبب أن الإجهاض القديم تسبب في العقم المزمع ! ومع ذلك لن أفقد  
الأمل حتى لو أنفقت ثروتي على العلاج !  
— لماذا لا ترددين ؟!

شدها صوته الخافت المهتز التبرات من شرودها ، فتذكرت في الحال  
أحر كلمات مريرة قطرها في أذنيها :  
— لعنة الله عليهم .. فهم أصدقاء السوء .. يغيرون منك لأنك  
سيدهم وتاج رأسهم !  
— ومع ذلك فهم آباء !

أخذته من يده برقة متناهية إلى أريكة وثيرة في ركن يطل على النيل  
، أجلسته إلى جوارها في محاولة مستميتة لإخفاء جذوة النار داخلها :  
— أعدك بأنني سأبذل المستحيل كي أحقق لك أمنيتك !  
— سمعت هذا الوعد أكثر من مرة !  
رفعت ذراعها من على كنفه وهي تحاول صد موجات المرارة  
داخلها :

— فلتفعل ما يحلو لك ! فأنا لا أستطيع أن أحرمك نعمة الأبوّة !  
شعرت بجسده مشدوداً وكلمات متعثرة تتلصقاً على شفثيه :

— كانت أُمى .. الله يرحمها .. قد طلبت منى أكثر من مرة أن أتزوج بأخرى تحقق لى أمنيتى !

لم تطلب لها الرحمة هذه المرة ! حتى الأسطى ربحانة التى وجدت فيها ملجأها وديناها ومستقبلها ! استعادت قوة شكيمتها فانحسرت موجات المرارة :

— ولماذا لم تلب طلبها ؟! فلم أكن لأمانع لو كانت صارحتنى بذلك !

توقفت لتتحسس وقع كلماتها على وجهه لكنه كان مطرقاً برأسه هاربا بعينه بين نقوش السجادة الفارسية الفاخرة ، فقررت أن تسبح حتى أعماقه :

— بل وكنت سأصر على ذلك !! بل وبحث بنفسى لك عن زوجة مناسبة !! ويكفينى أن أقوم أنا بدور الزوجة العاقر .. أو حتى المطلقة الطريدة ؟!

بدت فى كلماتها الأخيرة رعشة متعمدة ، لكنه سرعان ما التفت إليها ممسكا بيدها فى حنان متدفق :

— لا تقولى مثل هذا الكلام ! فأنت حياتى ودياى بعد أُمى ! ولا أتصور زوجة فى حياتى غيرك !

احتضنته حتى احتوته تماما وأغرقت وجهه بالقبلات :

— قلبى يؤكد لى أن الزمن لن يضمن علينا بطفل يملأ عليك حياتك ! استسلم لها كطفل مستمتع بأحضان أمه دون أن يفتح فمه ، ففاضت الغرفة بالصمت الناعس الذى تركته الطاف يهدىء من فورات العواطف المرة . لكن أذنيها اللتين دربتا على سماع ديبب التملة التقطتا

سيف رداء خلف عتبة الباب . تملصت من كافور برقة ، وحاولت  
شدير الإمكان ألا تحدث صوتا بقدميها ، لكن الصمت المتكاثف جعل  
السكون صوتا ، فإذا ينفسج تدق على الباب دقتين وتدخل مستأذنة أو  
: عية للاستئذان للبيات في بيتها :

— منذ متى كنت منتظرة خلف الباب ؟!

لم يكن سؤال أطفاف مفاجأة لبنفسج التي قالت بمنتهى الهدوء  
: انجاسك :

— حالا .. لماذا ؟!

— أبداً .. شعرت بوجودك منذ مدة !

— لم يحدث ! فقد انتهت حالا من إصلاح البندير لحفل الغد ! كما  
أنتى كنت أريد أن أفاتحك في موضوع خاص بى !  
لم تكن لدى أطفاف رغبة في تصاعد الجدل ، لكن الجملة الأخيرة  
أثارت حب استطلاعها :

— أى موضوع ؟!

ترددت بنفسج قليلا لكنها قالت بثقة هامسة :

— ابنتى سوسن بلغت الآن العشرين من عمرها .. وقد لقنتها  
الأناشيد والأغاني والتعاويد كلها .. حتى أتقنتها تماما .. وأود أن  
ساعدنا في الحفلات بعد أن تقدم بى العمر .. وبعد أن زاد الإقبال  
عليك !!

صممت بنفسج في حين تذكرت أطفاف وجه سوسن الجميل  
، جسدها المثير الناضج بالنداء ، وزوجها كافور الذى لا عمل له سوى  
أن يندب حظه العائر الذى حرمه من الإنجاب . جلجل صوتها برغم

تحكمها في أعصابها :

— عندما أريد من يساعدنا سأطلب بنفسى .. لا داعى للتعرع  
بالاقتراحات .. فأنا أدرى بما يتطلبه العمل !!

نزف الجرح القديم داخل بنفسج ، لكنها تماسكت كعادتها :  
— كما تحبين .. تصبحين على خير !

قالتها بنفسج وانصرفت دون انتظار للكلمات أخرى . عادت ألطاف  
تمسك بكافور وتجذبه بدلال من جلسته حتى وقف :

— هل سنقضى الليل بطوله هنا ؟!

ابتسم كافور لأول مرة :

— حيث تكونين أنت أكون !

احتضنها وأطبق على شفيتها فتركت جسدها عجينة ليشكلها بيديه .  
سارا سويا ، لكن منظر النيل أصابها بانقباض مفاجىء عندما تذكرت  
ليلتها الرهيبة على ضفته الباردة المطيرة . قاومت الإحباط عندما شعرت  
بسخونة جسده الملتصق بها في طريقهما إلى الفراش !

(٦)

مع غروب شمس ذلك اليوم غادر بسيم وكالة البلح منطلقا بسيارته إلى البيت بعد يوم شاق قضاءه في حل مشكلات بعض العمال في الورشة . كانوا يطالبونه برفع أجورهم وعندما حاول حسم المفاوضات إنقاذا لموقف الضائع والإنتاج المهدر سمع أحدهم يميل على أذن جاره ويقول له إنه معذور ، فالأمر ليس بيده وإنما بيد الست ! تلقى بسيم الكلمات كطعنات نجلاء في قلبه برغم أنه يدرك أنها حقيقة واقعة . تجاهل ما سمعه ، وبدلا من إصراره على أن أجورهم هي أعلى أجور يحصل عليها عمال ورش الخراطة والميكانيكا في مصر كلها ، عاد ووعد يبحث الأمر حتى يرضى جميع الأطراف محاولا أن يطيب خاطرهم ، لكنهم عادوا إلى ألتهم على مضض ، بحيث تأكد بسيم أن مفعول مسكنات المكافآت . الحوافز وتطبيب الخواطر لن يستمر طويلا ، ولا بد أن يصل إلى موقف حاسم مع نوال وإلا ضاع كل ما كافح أبوها من أجله وخطط أبوه له ! . لا بد أن يسرع قبل أن تقيم أول حفل زار لها حتى لا تستغرقها الدوامه . ربما عجزت عن الخروج منها . فهي الآن تنفق بجنون على لزوم العطارة . الملابس الحريرية الخاصة بالحفل ، وذلك بالإضافة إلى ما تستنزفه تكويدية منها ، فما بالك إذا قامت الحفلات على قدم وساق !؟

انطلقت السيارة بحذاء الكورنيش مخترقة نفق قصر النيل ، والشمس لا تزال ترسل خيوطها الساخنة برغم اختفائها تماما وراء الأفق . لم تعد نوال يتم بأحد ! لم تكلف نفسها أن تسأل ابنها عن مدى توفيقه في إجاباته نلى أسئلة امتحان آخر العام الذي بدأ منذ أسبوع ! أما هو فكان يهرب

طوال اليوم من جو البيت الخانق الكئيب إلى الورشة حيث يدفن إحباطه  
بضعفه ويأسه بين ضجيج آلاتها وصخب عمالها . والآن أصبحت هي  
الأخرى مكانا خانقا كئيبا بعد أن كان يظن أن سيطرة زوجته على كل  
شيء ، سر لم يخرج من غرفة نومه !

فكر في أن يزيد من أسعار الإنتاج دون علمها ، حتى يمكنه أن يرفع  
أجور العمال وأن يكتسب شعبية بينهم ، خاصة وأن أسعار الورشة تقل  
بعض الشيء عن السوق ! لكنه عدل عن فكرته كي يدرا عن نفسه  
متاعب هو في غنى عنها ! فعلى الرغم من عدم إكمالها لتعليمها ، حرص  
أبوها قبل وفاته على اطلاعها على كل أسرار الورشة وحساب الأرباح  
والخسائر لدرجة أنها أصبحت خبيرة في مسك الدفاتر ، وبمجرد إلقاء  
أول نظرة عليها لا تفوتها شاردة ولا واردة . ولا بد أنها ستسبى الظن  
بأى إجراء يتخذه دون علمها ، حتى لو كان من أجل الصالح العام  
للعمل !

ياله من يوم ثقيل سخيف ! كتب عليه فيه مواجهة العمال في النهار ،  
ومواجهة نوال في المساء ! وها هو يحترق جاردن سیتی ثم ينحرف يمينا  
مهدئا من سرعة السيارة التي دخل بها إلى الجاراج . حمل حقيته الصغيرة  
مسرعا مع دقائق قلبه إلى المدخل . استقل المصعد وفي لحظات كان أمام  
باب شفته ليفتحه ويدخل باحثا عن زوجته التي لم يجدها ، وإنما وجد  
باب الحمام مغلقا . دق عليه فأجابت من الداخل ، أدار المقبض وفتح  
قليلا ليراها جالسة عارية على حافة البانيو وهي تدهن جسمها بدهن  
فاحت منه رائحة الورد . لم يسترح لتأمل شعرها البنى الخفيف  
وجسدها الشاحب المترهل في بعض أجزائه برغم نحافتها ! سألته وهي



سحني في جلستها لتدهن ساقها النحيلتين :

— خيراً؟! هل حدث ما يعكر الصفو في الورشة؟!

— هناك موضوع عاجل لا بد أن أحسمه معك !

— هل تريد حسمه وأنا عارية هكذا؟!

شعر بقطرات عرق يبرد تنضج من صلغته الصفراء المستديرة

للأمعة :

— سأنتظرك خارجاً !

— نم قليلاً .. فلدى ما سيستغرق وقتاً طويلاً بعض الشيء !

دفعه الإحباط المتزايد إلى إغلاق الباب والعودة إلى غرفة مكتبه . قبل

أن يدخلها فتح باب غرفة حازم فوجدها مرتبة كما تركتها الدادة ! لا بد

لأنه في زيارة لمعبودته ثريا بحجة مساعدته في الامتحانات القائمة على قدم

وساق ! جلس إلى مكتبه تاركاً الباب مفتوحاً لينتبهز خروجها من

حمام . لأول مرة يحتاجه القلق بهذا الشكل ! ترك المكتب وظل يذرع

غرفة ذهاباً وإياباً بين النافذة التي تطل على شارع القصر العيني بحركته

الدائبة وضجته التي لا تهدأ ، وبين الباب المؤدى إلى الحمام بسكونه

التريب وصمته الثقيل !

فجأة سمع صوت هدير المياه داخل الحمام فعرف أنها شرعت في

الاستحمام . عاد إلى الجلوس إلى مكتبه حتى توقف صوت المياه عن

التدفق وفتح الباب لتسرع إلى غرفة نومها لترتدى معطفاً فوق رداؤها

الخفيف في حين غطت رأسها بمنديل أبيض ضخم بدا كالعمامة . عادت

إلى الحمام لتحمل دلواً صغيراً به ماء وصابون امتزجت فقاقيعه بماء

الورد ! كل هذا وبسبب يتابعها عن كثب دون أن ينطق بكلمة . لكنه لم

يستطع التزام الصمت عندما وجدها تفتح باب الشقة وتخرج بهذا الشكل . قفز وراءها حتى باب المصعد :

— إلى أين بهذا الدلو !؟

— قلت لك أكثر من مرة إن هذه الأمور ليست من شأنك !!

— أنا زوجك ومن حقي أن أعرف كل شيء عنك !

— من يسمعك يقلل إنني أخونك مع آخر !

جاء المصعد ففتحته فأسرع إلى الدخول معها برغم أنه ترك باب الشقة مفتوحا . هبط المصعد وهي تقول له في سخرية :

— إنك بهذا السلوك تعرض الشقة كلها للسرقة !!

— لا فرق بين من يسرقون الناس بعنف وخلصه وبين من يسرقونهم  
بذكاء وعلانية !

— ماذا تقصد !؟

— لن أقول لك إلا إذا قلت لي ماذا تنوين أن تفعل الآن !

توقف المصعد فخرجت منه وهو يهرول في أعقابها :

— تريدن أن تجعلي منا فرجة للناس !؟

لم ترد وإنما أسرعت خارجة ثم انحنت إلى شارع جانبي خلف العمارة وعند النقاء ثلاثة مفارق ألقت بالماء على الأرض في حين كان متسول

عجوز يرقبها في جلسته على الطوار وقد بدت على وجهه آيات الدهشة لدرجة أنه نسي أن ينادى طلبا للحسنة ! وحمد بسم الله على أن الظلام

كان قد طمس معالم الأشياء إلى حد كبير حتى لا يلمحه أحد من الجيران في وقتنه الحرجة الشائكة هذه مع زوجته المعتوهة ! أسرعت عائدة وهو

خلفها في صمت لم يقطعه إلا في المصعد :

— هل انتهيت من المهمة أم أن هناك إجراءات أخرى ؟

لاحظت نبرته المشحونة بالحنق والسخرية والمرارة المكبوتة ، لكنها لم  
نعاباً به ، فقد كانت في قمة السعادة والنشوة لما تفعله . أجابت بمنتهى  
الهدوء والبرود :

— لا تزال هناك خطوة أخيرة .. بعدها يمكن أن نتناقش في كل شيء  
وفي أي شيء !

سلم أمره لله ، وعاد أدراجه إلى غرفة مكتبه يذرعها جيئة وذهاباً !  
لكن حب الاستطلاع اشتعل داخله مرة أخرى عندما تسللت إلى أنفه  
رائحة بخور نفاذة ذكرته بتلك الرائحة التي كان يشمها قبيل إقامة أمه  
لحفلات الزار ! وهل يعقل أن يصبح الزار ضربة تصيب أمه ومن بعدها  
زوجته ؟! طالما سعد بزواجه وانتقاله إلى شقة زوجته هرباً من جنون أمه  
بالزار ، فهل يعيد التاريخ نفسه ويظل الزار يطارده طوال حياته ؟ لم يعد  
يخشى غضب الأسياد مثل أبيه ! فما يعاينه الآن من إذلال ومهانة  
وإحباط ومرارة أبشع ألف مرة من غضبهم المزعوم ! أم أنه لعنة تطارده  
هو بالذات نتيجة لما اقترفه مع تلك البائسة التي طوتها الأيام في ليلة غادرة  
ولم يعرف لها مصيراً بعد ذلك ؟! لشد ما قتله إحساسه بالذنب ! لكن  
ما باليد حيلة !

كان هو الآخر ضحية جنبه الذي جعله العوبة في يد أبيه ثم في يد  
زوجته ! لم يتخذ قراراً من شأنه أن يحدد به مسار حياته الخاصة ! كان  
يفضل دائماً الطريق السهل ، لكنه لم يعرف أن صعوبته تزداد كلما سار  
فيه ! طرد أبوه تلك الجميلة المغربية البائسة في ليلة يائسة فلم يحرك ساكناً  
وهو يدرك تماماً أنه السبب في كل ما جرى وما سيجرى لها ! خطط له

أبوه زواجه من تلك المعتوهة الثرية فلم يمانع طالما أنه سيعيش في مجبوحة من العيش الرغد دون جهد يذكر ! شاركت زوجته أمه في حفلات الزار فلم يستطع أن يفعل شيئا سوى إبداء ضيقه بكثير من التحفظ ! وها هي الآن تنتقل بهذه الحفلات إلى عقر داره دون أن يملك ما يمكنه من التصدى للظوفان ! حتى الطلاق لا يستطيع أن يلقي يمينه عليها كما لو كانت العصمة بيدها ! فالعصمة حيث الثروة وهو لا يملك شيئا حقيقيا ، كما أنه لا يستطيع أن يبدأ حياته من جديد بعد أن تعدى الأربعين !

انترعته رائحة البخور النفاذة من خواطره المتخبطة عندما وجد غلالة رمادية شفافة تتهادى لتغلف الغرفة بلونها . كانت الرائحة زكية ومع ذلك شعر باختناق نهض على أثره إلى الصالة فوجد مبخرة على الأرض وزوجته تمر فوقها جيئة وذهابا بحيث ملأ البخور تضاعيف ردائها الحريري الأبيض من الداخل ! ظل يتأملها في وقفته عند باب الغرفة لعلها تلحظ وجوده وتحجل مما تفعله ، لكنها كانت في حالة من التجلي والنشوة تمنعها من الإحساس بمن حولها . اصطنع حشرجة في حلقه وأزالها بصوت عال لكنها لم تلتفت إليه وطيات البخور تكاد تجعل الرؤية متعذرة . دمعت عيناه فلم يعرف إذا كانت دموع البخور أم دموع الضياع !؟

دخل الغرفة مرة أخرى وسحابات البخور ذات الدخان الرمادي الذي فقد شفافيته ، تهاجمه في تحد متصاعد لدرجة أنه فكر في مغادرة الشقة والسير على غير هدى في الشوارع حيث الهواء الطلق ومياه النيل المتدفقة . لكنه كعادته استسلم لما يجري ، انتظارا لانقشاع الضباب . لكن الانتظار طال والسكون ساد والدخان استعاد شفافيته ، فنهض إلى

الصلة فوجد المبخرة فوق المنضدة وان لم تكن خمدت بعد . كانت هناك بعض الجمرات المشعة تحت الرماد المتكاثف ، لكن نوال اختفت . بحث عنها فوجدها في فراشها ممددة في استرخاء ونشوة تجلت في عينها المثبتين على بللورات الثريا المنطفئة . أضواء الأباجورة وجلس على حافة الفراش : — نوال .. لا بد أن تسمعي جيدا ما سأقوله لأنه يمس مستقبلنا كله !!

تملمت قليلا في فراشها دون أن تنظر إليه فتأكد أنها منتبهة إلى ما سيقوله :

— لثالث مرة يطالبني العمال برفع أجورهم .. ويهددوني بترك الورشة إذا لم أرضخ لهم !

بدا عليها الضيق لخروجها التدريجي من النشوة السارية في عروقها بالخدر الممتع فقالت دون أن تنظر إليه :

— إنهم يحصلون على أعلى أجور ممكنة .. فإذا لم يرضوا ويقنعوا بها فمع السلامة .. ليس هناك أكثر منهم عدداً !

— كان هذا أيام أليك الذي اعتاد أن يطرد عاملا فيجد عشرة في الانتظار .. أما هذه الأيام فقد أصبح العامل عملة نادرة بعد أن هاجر معظمهم إلى دول البترول للعمل هناك بأجور خيالية !

— آخر دفاتر قمت بمراجعتها أكدت لي أن الميزانية لا تسمح !

— يمكن ضغط المصروفات لإرضائهم ولو برفع طفيف لأجورهم !

— هل يمكن ضغط المصروفات التي تنفق على الورشة ؟!

— لم أقصد هذه المصروفات فهي لا تحمل أي ضغط !

انتفضت جالسة فانتفض بدوره وإن بدا متأسكا :

— ماذا تقصد؟! أنت تعلم جيدا كم أنفق شهريا على أحمى فى  
المصحة!!

— لم أقصد هذا أيضا؟!  
استدارت لتواجهه فاهتر كرشه المنتفخ من فتحات القميص  
الأبيض :

— أعرف جيدا ما ترمى إليه!!  
قرر أن يقول لها ما لم يجزؤ عليه من قبل :  
— إنه بالوعة لا قرار لها !  
تصاعد التحدى مع بوادى وقاحة :  
— مالى وأنا حرة فيه !

— إنما أنا خائف على حياتنا وعلى مستقبل حازم .. عندما يخرج إلى  
الحياة لن يجد ما يمكنه الاعتماد عليه !  
— لا تحاول أن تفرض سيطرتك على بالخوف !

تدفقت موجات الإحباط الممزوجة بالمرارة داخله . فهو لم يحاول قط  
أن يفرض سيطرته على أحد ، بل ترك الآخرين يفرضون عليه  
سيطرتهم الواحد بعد الآخر ، ابتداء بأبيه ثم هذه المعتوهة وعمال  
الورشة ! حتى حازم الذى لم يتعد الثامنة عشرة من عمره لا يقيم لرأيه  
وزنا ! إلى متى سيظل تاركا نفسه للتيار يلقي به حيثما يشاء؟! قرر أن  
يقول الآتى وليكن ما يكون :

— إذا أغلقت الورشة ذات يوم لعدم وجود عمال .. فلن تكون  
مستوليتى !

عادت إلى الاسترخاء وهى تدبر له ظهرها :

— الورشة التي استمرت مفتوحة أكثر من ثلاثين عاما .. لا يمكن أن يتم إغلاقها في آخر الزمن على يدك !  
أدرك عدم جدوى الجدل العقيم فسلم أمره لله وذهب إلى غرفة مكتبه . سمع مفتاحا يدور في ثقب باب الشقة الذي فتح ودخل حازم الذي توجه إلى غرفة المكتب المضيئة :

— مساء الخير يا بابا ..

كان في فورة قنوطه :

— أين كنت ؟!

ذهل حازم للإجابة أو للتساؤل الثقيل فازداد شحوب وجهه ، وتضاعفت الهالات السوداء حول عينيه ، وطالت شعيرات ذقنه التي لم يخلقها منذ ثلاثة أو أربعة أيام :

— لو كان لديك أقل اهتمام بي لعرفت أين كنت !

هرب من حرجه بالتشاغل ببعض الملفات أمامه :

— أنت تعلم جيدا كم أنا مشغول بإدارة الورشة طوال اليوم !

— لكن هذا لا يمنع أن تعرف أن ابنك ووحيدك كان يمتحن مساء

اليوم من الرابعة إلى السابعة !

لم تخف رنة انسخرية والمرارة المكبوتة على الأب ، لكنه التمس العذر لابنه الضائع مثله تماما . يكفيه عجزه عن معرفة نوعية العلاقة بينه وبين ثريا ، فلم يتعود المواجهة والمصارحة حتى مع ابنه ! وإذا كان قد فشل في توجيه دفقة حياته طبقا لإرادته الشخصية ، فليس من حقه أن يفرض على ابنه وجهة معينة :

— والله وحده يعلم كم أتمنى لك التوفيق والنجاح في حياتك

( الكودية )

ومستقبلك ؟

عـ شكرا يا بابا .. عن إذنك !

انسحب حازم من الغرفة في سكون بليغ . أطرق بسم برأسه فوق المكتب بمرفقيه . في تلك اللحظة أدرك سر حماسه لتسمية ابنه يوم ولد بحازم . كان يتمنى في أعماقه أن يخرج من صلبه ابنا يعوضه عن إرادة الحزم التي طالما تاق إلى الإمساك بها منذ تلك الليلة الكابوسية لكن دون جدوى . ولعل الإنجاز الوحيد الذى حققه في حياته أنه احتفظ بذكراها مدفونة في أعماق أعماقه المظلمة التي لا يمكن أن تتسلل إليها نوال التي تسللت من قبل إلى كل ثغرة من ثغرات كيانه الهش !



(٧)

لم تشعر أطفاف بحماس دافق نحو مريضة من مرضاها مثلما شعرت نحو نوال . عرضت الأثر الذى أتت به للبخور سبع مرات ، وتلت عليه التعاويذ والتأمم ، وظلت تبتهل إلى الأسياد . وعندما راود النوم عينيها وضعت الأثر تحت الوسادة ونامت لتزورها الأسياد فى الرؤيا . رأت مريضة نائمة فسألت عن سبب مرضها ، فأجابها شيخ وقور هو كادو سلطان الجن الأحمر ثم سيدة عجوز هى الست الكبيرة أن المريضة أصابها الحمول وعدم القدرة على الحركة بنشاط ثم آلام الساقين والذراعين نتيجة لمخالفات قامت بها فى وقت معين عندما ألفت بماء على الأرض فى المساء دون أن تقول : دستور يا أسياد ، وخبطت برجلها على الأرض فى المساء أيضا دون أن تحترس ، كما تعمدت أن تطيب وتعطر قبل أن تنام ، وكررت النظر إلى المرأة فى الليل !

ونظرا لخطورة المخالفات التى قامت نوال بها والتى دفعت السلطان والست الكبيرة إلى تلبسها ، فإن الأسطى أطفاف طلبت من نوال مصاعغا من الذهب الخالص وملايس من الحرير والفراء وغير ذلك من المستلزمات التى تجاوزت فى قيمتها أرباح الورشة فى أربعة شهور ! وكانت نوال قد حضرت الحفلات الأسبوعية التى أقامتها أطفاف فى بيتها بمجرد مرور ذكرى الأربعين ، للتأكد من مطالب الأسياد والأسباب التى أدت إلى غضبهم . وعندما تم التأكد على وجه اليقين ، قامت الاستعدادات على قدم وساق للحفل الخاص بنوال والذى أعدت له

شقتها لأول مرة !

عند الغروب أتمت الأسطى الطاف نصب الكرسي . وضعت على المائدة المستديرة الصينية الكبيرة بعد أن غطتها بمفرش أحمر من القטיפه الفاخرة ، وعليه كميات ضخمة من الأطعمة والفاكهة والمكسرات والحبوب بأنواعها المتعددة : بلح جاف وسكر وكعك وملبن وحلوى مختلفة ، وأنواع من الجبن واللحوم المجففة واللبن والصابون وزجاجة من الخمر توسطت الصينية التي تناثرت عليها الشموع الصغيرة ، وحولها شمعدانات بها شموع كبيرة موقدة لم تشعر الحاضرات بإطفاء الأنوار الكهربائية .

دخلت نوال مزهوة لتزف حول الكرسي في ثوبها الأبيض الجديد وقد غطت رأسها بطرحة بيضاء هفهافة في ابتهاج واضح ، ومعها الصديقات اللاتي جئن ليشاركن في تلك الليلة المبهجة المباركة : الست عدالات برغم الحزن الدفين الذي امتزج بالغيرة الكامنة في عينيها الزائغتين ، والدكتورة ثريا التي تألقت في ثوبها الأبيض البراق مع خصلاتها الذهبية اللامعة ، وأمها مدام كوثر التي شاركتها في ملاحظها الجذابة المبهرة وإن لم تشترك معها في البهجة والراحة النفسية . كان الاشمزاز يتنقل مع عينيها ذات العين وذات اليسار ، مع ارتعاشة في الزاوية اليسرى لشقتها السفلى الرقيقة ، وهي تسير في الطابور أو الموكب الذي ضم ما يقرب من عشرين صديقة وضمن سلاسل فضية وأساور وخلاخيل ذات جلاجل تحدث أصواتا وأصداء كلما اهتزت .

وكانت الأسطى الطاف قد انتهت أيضا مع المنشدة بنفسج ومساعداتها من تجهيز الآلات الموسيقية وذلك بتعريضها للنار فوق موقد

معد لذلك ، انتهيز من آلات الطمبورة والرق والطيلة ، كما أعددن الصفارة والبندير والسلامية . ولم ترفع مدام كوثر عينيها عن نساء الجوقة في ملابسهن البيضاء ، وعطورهن النفاذة ، وأريج البخور العبق ، وأقراطهن الكبيرة ، وعقودهن المصنوعة من الأحجار المقلدة ، وخواتمهن الكثيرة ذات الألوان المتعددة ، والمناديل المطرزة على رعو سهن المدلى على يسارها حجاب خاص !

أما أفراد الجوقة من الرجال فقد لمع لون بشرتهم السوداء في ضوء الشموع ، وقد لبسوا المنجور حول وسطهم ، ذلك الحزام المعلق به حوافر الماعز التي تحدث إيقاعات معينة كلما اهتزت أثناء قرع الطبول . كما أطال بعضهم شعره كالنساء تماما مع دلال واضح في النظرات والحركات .

سألت مدام كوثر الست عدالات عن الموعد الذي ستظهر فيه العفاريت فإذا بالست عدالات تدق على صدرها غضبا ، وقد حلت بها الأسياد الذين نطقت بلسانهم معبرة عن غضبهم الشديد لذكر لفظ « العفاريت » فهم أرواح طاهرة نقية ولا تمت للعفاريت الشريرة بصلة . فاضطرت كوثر إلى الاعتذار لعدالات في تشنجها ونظرات ثريا المخدرة لها ترجوها أن تصمت وتتابع فقط !

أطلقت الأسطى ألطاف البخور ، وبدأت في الإنشاد ثم واصلت بنفسج الإنشاد مع الدقات المسعورة :

— شمع الليالى يا ماما يا سيد العيلة .. عزموك يا ماما إني وادوه على ماما واديه .. على ايه يا حلو يا ماما يا ماما .. يا سلطان جابوا عبايه ماما باللولى والمرجان .. قادوا الشموع لماما والشمع بات سهران ..

وندهت السيدة زينب رئيسة الديوان .. يا شيال الحمول يا متولى شيل  
حملة العيان .. يا شيخ العرب يا سيد يا ندهة المنضام .. فرشوا الأرض  
للما بالفل والريحان !

ثم قامت الأسطى ألطاف بتبخير نوال عروس الزار أولاً ، فجعلتها تمر  
فوق نار المبخرة سبع مرات ، ثم بخرت كل من تقدمن إليها من النساء  
نظير مبالغ معينة تدفعها كل ضيفة للأسطى حسب مقدرتها . كانت  
الست عدالات أولهن ثم ثريا التى تسلى البخور الساخن داخل رداها  
الأبيض الفضفاض ليحتوى جسدها الجميل الرقيق بدغدغة لم تشعر  
بمثلا من قبل ، فتأكدت أن اللذة الحسية التى تستشعرها هؤلاء النسوة  
بالمرور قبل البخور الساخن ، أكبر دليل على الجوع الجنىسى الذى  
ينهشهن من الداخل . ثم جاء دور مدام كوثر ليثير البخور داخلها  
إحساسا بالقىء جعلها تندم على التواجد بين هؤلاء المهوسات ، وتلعن  
حب استطلاعها الذى دفعها إلى هذا الجنون . فهى تربأ بنفسها أن تنقاد  
لدجالة مثل هذه الكودية ، ولذلك قاومت شعورا بالدوار ملاً أطرافها  
بمواكب من الحمل الدقيق الحجم .

وتوالى مواكب النسوة . كلما اندمجت سيدة فى الحلبة اقتربت منها  
الكودية ألطاف ومعها بنفسج والجوقة للضرب بالدفوف فوق رأسها  
على دقة كادو سلطان الجن الأحمر ويستمر الإنشاد :

— يا أبو قلم فضة والخبر زعفران .. والقول على ماما يا ماما يا  
سلطان والقول على روما .. يا نجدى يا عجبان .. والقول على يوسيه  
أخته أم الغلام !

ومع ظهور بادرة انفعال مع فرح أو حزن على وجه أية سيدة من

المتفرجات ، كانت الكودية والمنشدة والجوقة يسرعن إليها بدق الدفوف فوق رأسها لتشجيعها على الانضمام إلى الحلبة مما زاد من عدد المحفلات ، وأحال الحفل إلى كيان ضاح بالحيوية ، ومهتز بالبهجة ، ومرتعش بالنشوة السارية كمس الكهرباء بين الحاضرات .  
وكلما انتشر الرماد على سطح المبخرة ، كانت أطفاف تسرع بمضاعفة البخور من علبة فضية موضوعة إلى جوار الموقد ، حتى يتأجج الدخان ، ثم تميل برأس نوال عليه مع يديها وساقها ، ثم ترفع الرداء حتى يدخل البخور إلى كل ثنأيا جسدها . وبعد ذلك تكرر الطقوس نفسها مع كل الحاضرات وسط إنشاد بنفسج التي رفعت عقيرتها القوية الرنانة به :

— ارحمنى يا مولاي يا شىضار وايوه .. رب العباد وياه يا شىضار وياه .. يا رب يا معبود يا غفار الذنوب على العاصى وتتوب .. كل ما أنوى وأتوب يغلب على الوعد والمكتوب .. مكتوب على جبينى حبل الشقا ممدود !

ومع تمزق جبال الوعي ، وانطلاق الحمم المكبوتة ، وهروب خيول الرغبة من عقالها اندمخ الفتيان السود بالرقص والإنشاد ودق الدف والطبله والطمبورة والبندير ، ونفخ الصفارة والنأى ، بين الحاضرات ليمسكوا بمن توشك على الوقوع أرضا . وكلما غاصت الأيدي السوداء الجامدة فى الأجساد البيضاء الطرية ، علت الآهات والتأوهات اللاهثة التى سرعان ما تتلاشى مع الدقات المحمومة والظلال المشراقصة على جدران الصالة الفسيحة خلف الشموع الصغيرة الموقدة والشمعدانات الكبيرة المتألقة ، مع دخان البخور الشفاف الرمادى المتكاثف مع

قطرات العرق البللورية الناضحة على الأجساد المتمايلة في جنون ذات  
اليمين وذات اليسار ، إلى الأمام وإلى الخلف ! وسط أكاليل الورد  
والنقوش على الجدران !

شعرت مدام كوثر بجيل الاختناق يضيق حول عنقها وكأن فتحتي  
أنفها قد سدتا . لم تعد الدقات تخرق أذنيها فحسب ، بل هاجمت  
صدرها وقلبها ! أوشكت على السقوط فتلقفتها يد سوداء صخرية عبث  
بنهديها ، وابنتها أمامها مشغولة بتقليد المحاضرات بعينين خضراوين  
مفتوحتين على كل كبيرة وصغيرة . لكن صرخة خرجت كالرصاصة  
الطائشة لتدوى في سمع الأطفاف بصفة خاصة ، برغم الدوى الذى يصم  
الآذان . توقفت عن الدق والتمايل فوجدت عيني مدام كوثر قد طفحتنا  
بلون الدماء وتركزتا عليها وهما تنضحان بجنون الاحتقار والاشمئزاز من  
نفسها ومن كل من حولها ! وفي لحظة تالية انطلقت صرخة أخرى  
أمسكت ثريا على أثرها بذراع أمها التى صاحت مختنقة :

— كفاكم دجلا !! إنكم لا تضحكون إلا على أنفسكم !! أين هى

العفاريت التى تتلبسكم !؟

شدت ثريا أمها من ذراعها التى ضغطت عليها :

— لا داعى لهذا الكلام يا ماما !! يمكنك أن تنصرفى بلا ضجة !

لكن الأطفاف المنتمرة المتربصة بها خافت على عرشها من الاهتزاز  
فوضعت الدف على مقعد قريب من المائدة عليه شمعدان كبير ، وزحفت  
إليها بردائها الأبيض الحريري الطويل ، ووجهها ذى الجمال الوحشى ،  
وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، وبشرتها  
البيضاء المضرجة بالحمرة والناضحة بالعرق ، وشعرها الأسود الطويل

ذى الشلالات اللامعة المندفقة على كتفيها وظهرها ، فى حين توقفت  
المنشدة عن الإنشاد ، والجوقة عن الدق ، وساد صمت لم يحدث من قبل  
فى حفل للزار !

ركزت أطفاف عينيها على وجه كوثر فى حين تحولت كل الحاضرات  
إلى تماثيل شمعية من ذهول وشروء وهلع ! صاحت أطفاف فى كوثر التى  
اهتزت وهى تقاوم دواراً عاتياً يوشك أن يتحول إلى إغماء :

— كيف تجرؤين على تسمية الأرواح الطاهرة بالعفاريث ؟ هل  
جننت !؟ سأتركك للعتيم ! فأنا وإن كنت خادمتهم فإننى فى حالتك لا  
أستطيع طلب سماحهم ورضاهم !

صرخت نوال فيما يشبه النحيب :

— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

أطلقت أطفاف سهام عينيها النارية على وجه كوثر التى قاومت  
الإحساس الزاحف بالإغماء قدر إمكانها ، وثرىا متشبثة بذراعها فى  
رعب دفين ! لم تسترح أطفاف لصمود كوثر المؤقت فأرادت أن  
تسحقها وتذروها مع البخور الآخذ فى التلاشى . صاحت :

— بحق كادو سلطان الجن الأحمر .. وبحق الست الكبيرة .. وبحق

هذا الحفل الذى أقيم من أجلهما .. عليك لعنتهما !

فى اللحظة نفسها سقطت كوثر ممددة على الأرض وصرخة من ثرىا

التى انحنت عليها تهزها فى عنف :

— ماما .. ماما .. أفيقى !!

وابتسامة الانتصار على شفتى أطفاف ، والتشفى فى عينيها ، والزهو

فى حاجبها الأيمن المرفوع ، فى حين صرخت الست عدالات :

أشارت أطفاف بطرف عينها اليسرى إلى غلامين من السود فتقدما  
لمساعدة كوثر على النهوض قبل أن تسترد وعيها تماما ! سارا بها إلى خارج  
الشقة وهي تجر قدمين من رصاص ، وثرىا تمسك بها فى شغف و حرج  
شاعرة بالنظرات إليهما كسهام مشتعلة مسمومة دون أن تراها . خرجتا  
وفى لحظات عاد الغلامان وأغلقا الباب خلفهما . وقفت أطفاف على قمة  
مجدها الجديد وقد التفت الحاضرات حولها فى محاولة مبتهلة للتقرب منها  
ونوال البركة ! أما نظرات بنفسج فكانت زائغة حائرة مشحونة بالحقد  
على تلك الخادمة التى تنتقل من قمة إلى أخرى ببساطة النحلة التى تنتقل  
من زهرة إلى أخرى ، تمتص الرحيق وتلدغ من يحاول اعتراضها !

خرجت بنفسج من حيرتها على سهام أطفاف الصامته تأمرها بالبدء .  
عادت الدقات إلى عنفوانها مع نفس الأناشيد التى سمعتها الحاضرات من  
قبل . وظلت الدوامة تموج بالحاضرات بين قطرات العرق ، وتمایل  
الأجساد ، وإيقاع الصنوج ، ودقات الدفوف ، وتكاثف البخور ،  
واهتزاز الشموع ، ونواح الناي ، وصوت بنفسج المتدفق الهادر بشمع  
الليالى ، وسيد العيلة ، وسلطان الجان ، واللولى والمرجان ، ورئيسة  
الديوان ، والفلى والریشان ، وحملة العيان ، والوعد والمكتوب ، وحبل  
الشفا الممدود ، والقلم الفضة والحبر الزعفران ، والسلطان العجبان  
وأخته أم الغلام !

وظلت الدوامة تفور وتمور ، تعلو وتهيط إلى أن أخذت الأسطى  
أطفاف نوال من يدها حول الكرسي المنصوب لتجلسها على مقعد أمامه  
وسط المجلس ، فى حين جلست الحاضرات على السجادة التى تغطى



أرض الصلاة حول المائدة . اختفت ألطاف في المطبخ ثم عادت بديك ودجاجتين وربطت أرجلها بحبل دقيق أخرجه من جيب رداؤها الأبيض ، ثم وضعت الديك على رأس نوال والدجاجتين على كتفيها ، وهى تنشد بصوت عال ومعها بنفسيح والجوقة على دقة الست الكبيرة :  
— والله يانى على ماما على ماما من اليمن جينا .. جينا على الصفين زى الهوا جينا .. وجينا بنخور العود لماما والرب أهو موجود .. رب العباد موجود يستر ويرضينا .. لما رمانى الشوق على ماما صمنا وصلينا لابسين حرير أخضر .. ما ورد ورقينا .. قادوا الشموع لماما .. كراسينا ونصوها !

وامتزج هدير الأناشيد والدفوف والصنوج بصياح الدجاج المتفرض خوفا ورعبا لولا إمساك الكودية ومساعدتها بتلايبه ، وجميع الجالسات يمسحن وجوههن صائحات مبتهلات متضرعات :  
— دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى !

ثم أنزلت ألطاف الديك والدجاجتين لتعود بها إحدى مساعداتها إلى المطبخ . أخذت الكودية نوال من يدها إلى غرفة فتح بابها على المائدة المستديرة حيث نامت نوال ومعها الكودية على سرير وثير ، وغفت الحاضرات فى جلستهن على السجادة .

وفى تمام الساعة الثانية صباحا استيقظت ألطاف ونوال لبدء مراسم الحفل الذى سيجرى فى الفجر ، ولتنفيذ طلبات الأسياد الذين زاروا الكودية فى الرؤيا عند كشف الأثر . قامت ألطاف بذبح دجاجة ملونة بألوان مختلفة لجمعية الأسياد ، وديك أحمر للبواب ، ودجاجة بيضاء للست الكبيرة ، وأخرى سوداء للخادمة الحبشية ، حتى ترضى أكبر

وأخطر مجموعة من الأسياد . كذلك رأت أطفاف في الرؤيا بالإضافة إلى هذه الطيور الأربعة ، نعجة للست الكبيرة ! فأبعد الطست الزاخر بالدجاج المذبوح ودمه الساخن ، ليتم إحضار طست آخر كبير ومعه نعجة قامت أطفاف بذبحها بنفسها ، بحيث تدفق دمها في الطست ، فأمرت نوال بأن تشرب من الدم وتدهن به ساقها وذراعها وبطنها وصدرها وعنقها وخديها . ترددت نوال للحظات لكنها سرعان ما تجرعت كوب الدم التي قدمتها إليها أطفاف ثم انهالت على أعضاء جسدها تلتطخها بما تبقى من دماء في الطست .

وبمجرد الانتهاء من هذه الطقوس تقدمت أطفاف نوال بالدف وفي أعقابها بنفسج والجوقة التي التفت حولها بالإنشاد ودق الدفوف والصنوج ، وقد تلتطخ جسدها ورداؤها الأبيض بحمرة الدم القاني ، وهي تزهر أمام الجميع بصفقتها عروس الحفل التي لن تزف هذه المرة إلى زوجها وإنما إلى من هم أعلى مقاما وأخطر شأنًا وأعمق سرًا .. إلى الأسياد !

جلست أطفاف على أحد المقعدين المواجهين للمائدة المستديرة . ثم أجلس نوال على الآخر ثم انتظمت بنفسج والجوقة حولهما على السجادة وكذلك الحاضرات . دار الغلمان السود بالقهوة على الجميع في فترة راحة لم تزد على نصف ساعة بعدها شرعت بنفسج والجوقة في إعداد الدفوف والطبول ، وسرعان ما نهضت أطفاف ونوال وحولهما الجميع مع الدقات التي عادت بأعنف مما سبق مع الإنشاد الذي ينادى سلطان الجن الأحمر والست الكبيرة وياور بك وركوشة هاتم وأم الغلام وسلطان البحر وابنته سفينة !

في تلك الأثناء دخل الغلمان السود بكبش مزين بالزهور وهم يحملون طستنا آخر وملاءة بيضاء . وكانت الزهور والورود حول رأس الكبش من نفس نوع أكاليل الورد المحيطة بالقاعة ، ونفس نوع النقوش على جدرانها . شد الغلمان السود الملاءة على شكل خيمة صغيرة دخلت تحتها أطاف ونوال والكبش . دخل قصاب ضخم الجثة واختفى تحت الملاءة أيضا . انطلق أنين الكبش الذبيح واهتزت الملاءة في عنف مع بقع الدماء التي تناثرت أسفلها كنافورة ساخنة ، وأطاف تصيح : دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى ، وتردد الحاضرات نفس النداء بابتهاال وخضوع ، فقد كان بعض الأسياد حاضرين تحت الملاءة التي أحضرت خصيصا لهذا السبب !

انكشفت الملاءة عن كبش مضرج في دمائه داخل الطست ، والقصاب يغادر القاعة بسكينه التي تومض تحت الدماء المتساقطة منها ، في حين عادت أطاف ونوال الملطخة بالمزيد من الدماء إلى المائدة المستديرة حيث جعلتها أطاف ترقع منكسة الرأس إلى الأرض ، وسهام الغيرة تنطلق بوميضها الشرس من عيني عدالات في جلستها في ركن قصي . انتظمت الحاضرات مرة أخرى حولهما ، وتحول الإنشاد والدق إلى هدير يصم الآذان حول الراكعة :

— شيخ محضر .. يا شيخ محضر .. اللي عليه عفريت يحضر !!

دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى ! شيء لله يا أسيادى !!

وتكرر الإنشاد والدق الهادر مع تمايل الأجساد والظلال والشموع في حين جاء غلام أسود من الداخل يحمل لفافة ضخمة أخرج منها عباءة حمراء موشاة بالقصب ، وطربوشا مكللا باللؤلؤ ، وسيفا وخنجرا من

فضة . لبست نوال العباءة الحمراء بمساعدة أطفاف التي وضعت الطربوش بمعرفتها على رأسها ، ثم قلدتها السيف والخنجر ودارت حولها مع بنفسيج بالدفوف ، والجوقة تدق وتنفخ ، في حين تمايلت نوال وسط الجمع العظيم ثم انتفضت صارخة :

— السلام عليكم !

فسألها أطفاف والشرر يتطاير من سواد عينيها :

— أهلا وسهلا !

أجابت نوال بصوت أجش كصوت الكهول :

— أنا .. كادو .. سلطان الجن الأحمر !

صمتت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال أطفاف :

— دستور !! ماذا تريد ؟!

— كل طلباتي التي مرت بالأسطى أطفاف في الرؤيا !! وإلا أصبتها

بالعمى !!

— دستور !! طلباتك كلها مجابة .. ذهب وفضة ونقود وذبائح ..

اعطنا فرصة حتى الأسبوع القادم لتلبية كل المطلوب !

— سماح هذه المرة من أجل خاطرك فقط !

صرخت أطفاف فمزقت نسيج السكون الرهيب :

— الرضا والسماح يا أسيادي ! شيء الله يا أسيادي !!

أصبح الصوت الأجش أجوف مثيرا للرغبة :

— وأين دقة سلطان الجن الأحمر حتى أنصرف وأعفو عنها !

— أمرك مطاع .. دستور يا أسيادي !

نظرت أطفاف إلى بنفسيج التي قادت الجوقة على دقة السلطان فارتحنى

جسد نوال وعادت إلى ركوعها منكسة الرأس إلى الأرض . أنهضتها  
ألطف وسط الدقات والصيحات والصرخات والابتهالات ، في حين  
فتح الغلام الأسود اللفافة وأخرج منها ملاءة من الحرير الهندي مشغولة  
أطرافها بالكنتير الفضى ، وحليا من الذهب الخالص ، وإكليلا من الفل  
والياسمين ، وعقدا من اللؤلؤ والمرجان . أمرت ألطف نوال بخلع العباءة  
الحمراء والطربوش وترك السيف والخنجر ، فأطاعت . ساعدتها في  
ارتداء الملاءة الحريرية ، والحلى في ذراعها وساقها ، والعقد حول  
عنقها ، والإكليل على رأسها .

انتفضت نوال وتميلت يمنا ويسرة ثم صاحت بصوت رفيع حاد  
كالسكين في قلب النعجة :

— السلام عليكم !

سألتها ألطف بعينين من وميض كمنصل السكين :

— أهلا .. وسهلا !! دستور يا أسيادى !

أجابت نوال بصوت زادت حدته :

— أنا الست الكبيرة !

صمت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال ألطف :

— دستور !! ماذا تريدان ؟

— كل طلباتى التى أمرت بها فى رؤيا الأسطى ألطف !! وإلا أصبتها

بالكساح !!

— دستور !! طلباتك كلها مجابة على العين والراس .. الحلى والحرير

الموشى بالقصب .. والحلل السبع المرصعة باللؤلؤ .. والطرحة ذات

الأطراف الذهبية .. والخاتم الماسى .. وحجاب السر الباتع !

— سماح هذه المرة من أجل خاطرک فقط !  
صرخت أطفاف کمن صبعقت بمس کهرنی :  
— الرضا والسماح یا آسیادی ! طلباتک کلها مجابة قبل حلول  
الشهر القادم !

أصبح الصوت الحاد کسيف محمی فی النار :  
— وأین دقة الست الكبيرة حتی أنصرف بسلام !  
— أمرک مطاع .. دستور یا آسیادی !

قادت أطفاف الجوقة على دقة الست الكبيرة ، فارتحی جسد نوال  
وعادت إلى رکوعها منکسة الرأس إلى الأرض ، لكن تجسدت على  
وجهها هذه المرة خطوط من الارتياح العمیق . أنهضتها أطفاف وسط  
الدقات والصیحات والصرخات والابتهالات التي بدأت تخفت ، فی  
حين کادت الغيرة أن تقتل الست عدالات کمدأ . فقد ظلت عروسا  
لعشرين عاما ، ثم تأتي هذه الشاحبة النحیلة التي هبطت عليها الثروة فی  
غفلة من الزمن ، کى يتم زفافها إلى الأسياد ، فی حين أنها لا تصلح إلا  
لتزف إلى عزرائیل !

ساعدت أطفاف نوال فی خلع الملاءة ، والحلی ، والعقد ، والإکلیل  
وإعادتها إلى اللفافة . ثم جلستا على المقعدين المواجهین للمائدة الصغيرة ،  
وانتحت الحاضرات الوسائد المتناثرة فی الأركان فوق السجادة الحمراء  
الكبيرة ، فی حين بدأ الإعداد للطعام !

شرعت أطفاف فی إعادة السيدات إلى وعین بنثر ماء الورد عليهن  
بادئة بنوال ، ثم طافت بالبخور حول الكرسي المنصوب ، وهي لا تزال  
تطلب من الأسياد السماح والرضا ، وتزید من البخور كلما نقص .

كانت الحاضرات غارقات في عرقهن واسترخائهن وأنفاسهن التي بدأت تعود إلى الهدوء ، وخمود يسرى في الأعضاء والعروق ، ونعاس خفيف يداعب بعض الجفون ، ونظرات إلى تحركات أطراف تكاد تقبل بديها وقدميها وسرها الباتع الذي لا يستطيع أحد بعد الليلة أن يشكك فيه !

عادت أطراف إلى مقعدها بجوار مريضتها التي شفيت بخروج الأسياد ، ولم تكن خيوط الفجر قد امتدت بعد . بدأ الغلمان السود في توزيع إفطار خفيف على الحاضرات : حلوى مسكرة وكعك وملبن ولبن زبادى ولبن حليب وفواكه طازجة ومحفوظة ولحوم مقددة وخيار ومقدونس وجبن . انهمك بعضهن في التهام الطعام ، في حين استسلم البعض الآخر للإرهاك اللذيذ السارى في أجسادهن ، وفي مقدمتهن نوال المنتشية بردائها الملطخ بالدماء القانية التي تجمدت وأصبحت قائمة الآن ، وتصوغات الزار ، والأحجبة والتمام المعلقة في أطراف طرحتها الشفافة ، والتي صنعتها لها الأسطى أطراف خصيصا . وهى الحال التي ستظل عليها سبعة أيام ، دون أن تغتسل أو تخلع مصوغاتها أو تتخلى عن الأحجبة والتمام وإلا غضب الأسياد عليها مرة أخرى وأصيبت بالأمراض التي برئت منها حالا !

دخل القصاب والطاهى واستأذنا الأسطى أطراف في القيام بتقطيع الذبائح حتى يبدأ العمل في المطبخ . وقفت أطراف منتصبة لتصدر أوامرها :

— ستقوم مريدتنا بتوزيع الذبائح بنفسها .. وإياك أن يمسه أحد

قبلها !!

( الكودية )

عاد القصاب والطاهي أدراجهما إلى المطبخ ، وفي أعقابهما أطفاف التي جذبت نوال من يدها فتبعتها في نشوة مستسلمة ، وقلب الست عدالات يكاد يقفز من نظراتها في غيرة متفجرة . ولم تعباً أطفاف بأوامرها إلى القصاب أمام الحاضرات في الصلاة ، بل شرعت في الحال في توزيع الذبائح بنفسها ، بينها وبين نوال والقصاب الذي أخذ نصيبا ضئيلا أخذه راضيا شاكرا وانصرف ، ثم استولت أطفاف على نصف الكبش ونصف النعجة كاملين نظيفين ، ثم الرأسين والسيقان والفراء والقلبين والكبدتين والعظام لدفنها في المايئجة التي شرحت أطفاف معناها لنوال بأنها حجرة صغيرة في بيت الكودية لدفن أجزاء الذبيحة التي لا تؤكل ، لحين تجمع أرواح الأسياد بها . وكانت نوال تصفى إليها تأدبا لمعرفة ما قالته !

أقيمت الموائد وقدم الطعام للجميع حول الكرسي المنصوب . وكان على نوال أن تأكل مع أطفاف من أحشاء الحيوانات والطيور ورءوسها بحيث يرسل ما تبقى منها مع السيقان والفراء والريش إلى المايئجة . وبعد الانتهاء من هذه الوجبة الدسمة عند مطلع الفجر ، بدأت أطفاف توزيع ما على الكرسي من مكسرات وحلوى وفاكهة مسكرة على المدعوات في أنصبة صغيرة ، ثم احتفظت لنفسها بالنصيب الأكبر منها ، والذي حمله أحد الغلمان السود إلى المطبخ .

جلست أطفاف على مقعدها مرة أخرى إلى جوار نوال التي شعرت بالمصوغات والحواتم المربوطة في حزام حول وسطها تحت الرداء ، وهي تدغدغ بطنها وخصرها فتبعث في جسدها إحساسا غامضا بالخطر . بدأت المدعوات في الاستئذان والانصراف ، فانحنى بعضهن ليسلم على



أُسطى الطاف بمنتهى الخشوع والخضوع ، في حين اقتنص البعض الآخر قبلة على يدها ، وهي تباركهن بتلاوة تعاويذ غامضة بصوت خفيض . ومع تسلل المدعوات إلى الخارج ، تسللت خيوط الفجر ونسماته المنعشة إلى الداخل حيث احترقت الشموع وذابت ، وتلاشى دخان البخور وإن لم يرحل عقبه ، وذبلت أكاليل الورد وتدلّت أعناقها مثل الرءوس الخاشعة المتشعبة بليلة من ليالى العمر !

(٨)

جلست ثريا في الشرفة المطلة على شارع القصر العيني مع أمها في صمت ومتابعة لحركة السيارات المنطلقة جيئة وذهابا أسفل الشرفة . رفعت ثريا عينها تجاه الشرفة المحاذية لها فلمحت حازما يتسم لها في منتهى العذوبة ، فبادلته الابتسام بابتسامة تشع بيريق عينها الأخضر ، ووميض خصلاتها الذهبية . سرت النشوة في مسام جلده فتصنى أن تدوم هذه الجلسة إلى الأبد . ملأ وجهها وجدانه فلم ير زحام الشارع أو يسمع ضجيجه .

استدارت الأم دون تفكير مسبق لترى ذلك الذي تبادلها ابتها الابتسام فوجدت ذلك المراهق المسكين الذي طالما عطفت عليه كابنها تماما . قالت لابنتها وهي تعود لجلستها مرة أخرى :

— أخشى أن يتعلق بك أكثر من اللازم .. فهو من النوع العاطفي الذي ترفعه كلمة إلى عنان السماء وتبيط به أخرى إلى سابع أرض !

أجابت ثريا وقد تحاشت النظر المتواصل إلى حازم :

— لا تنسى يا ماما أنني كنت أحمله وعمره سنتان !

— ولا تنسى أيضا أنك لم تتجاوزي في ذلك الوقت العاشرة !

— إن ارتباطه بي هو ارتباط أخ بأخته الكبرى ! ولذلك كان أكثر الناس حزنا لما وقع بينك وبين الكودية ! كان كل خوفه أن يؤثر هذا الموقف على ترده علينا !

— عموماً .. لن يتمكن من التردد علينا بعد عقد خطبتك إن شاء الله  
على رشيد !

رفعت ثريا عينها فوجدته لا يزال يتأملها في عذوبة ، كأنه يحاول أن  
يستبين من حركة شفيتها ما تقوله لأمها :

— رشيد ليس شاباً تقليدياً محدود الأفق .. ولذلك كان نضوجه  
العقلي والوجداني السبب الأساسي في قبولي له عندما عرض على الزواج  
ببساطة متناهية !

— أخشى أن يكون قبولك له أسرع مما ينبغي .. كما كان رفضك  
للطابور الذي جاء قبله أطول مما يجب !

— رشيد ليس غريباً ! فقد كنت تلميذة له في السنة الأولى والثانية  
عندما كان معيداً .. وكان اهتمامه بي واضحاً .. كما لا أخفى عليك أنني  
كنت معجبة بعقله وتفكيره الناضج وأفقه الواسع .. لكنه سافر في بعثته  
للدكتوراه .. وبمجرد أن عاد منها هذا الشهر .. سعد للغاية عندما  
وجدني معيدة وزميلة له في هيئة التدريس .. وعندما تبادلنا الأحاديث  
القديمة التي دارت بيننا .. وجدنا أنفسنا نتذكرها بكل تفاصيلها  
الدقيقة .. والأسبوع الماضي انتهاز فرصة خلو غرفة الأساتذة .. وعبر  
بمنتهى البساطة عن إعجابه بعقليتي التي تختلف كثيراً عن معظم من هن  
في سنى .. وعرض على الزواج بنفس البساطة مؤكداً أن رفضي لن يؤثر  
إطلاقاً على زمانتنا الوطيدة .. فلم أتمالك سوى أن أقول له إن بابا وماما  
يشرفهما أن يستقبلاه في البيت . وعندما شعر بحرجي ترك لي تحديد  
الميعاد واستأذن وخرج !

استدارت الأم لتجد حازماً لا يزال يملأ عينيه بابتها :

— أفضل أن ندخل .. الولد لا يريد أن يرفع عينيه عنك !

— أتعرفين أنه انتقل إلى السنة الثالثة بتقدير جيد جدا !

— البركة فيك .. هيا ندخل لنستعد لاستقبال رشيد !

نهضتا وثرىا تحيى حازما بابتسامة قبل أن تدخل ، لكنها لم تلاحظ أن عذوبة نظرنه قد تحولت إلى حزن دفين ، خاصة في لحظة ظهور أبيه في الشرفة ، وعيناه اللتان التقطتا جزءا من خصلاتها الذهبية وفستانها الأصفر ذى التماوجات الخضراء وهى تدلف فى أعقاب أمها ! وعندما تحولت العينان الحائرتان الناقتان إلى ابنه ، أشاح الأخير بوجهه بعيدا متشاغلا بالسيارات المنطلقة فى الشارع والضجيج الذى يلفه .

فى الداخل وجدت ثريا أباهما وقد استيقظ من نوم الظهره ، وارتدى ملابس ه . كان يمشط شعره البلاينى أمام المرآة التى وقف أمامها بقماته الطويلة ، وقوامه الرشيق فى حلته الخفيفة التى تحاكى لون السماء الصافية . رآها فى المرآة تقف خلفه مبتسمة :

— على فكرة . إذا أطال الدكتور رشيد من جلسته .. فسوف أستاذن .. فأنت تعرفين مدى التزامى بمواعيدى مع المترددين على العيادة !

أجابت وهى لا تزال تتأمل وجهها المشع فى المرآة :

— لم أخف هذا على رشيد !! فضحك وقال إنها زيارة عمل هذه

المره !

— يبدو أنه لا يعانى من أية عقد أو حساسيات لا لزوم لها !

— ستشعر من أول لقاء أنه واحد منا ... فكرا وسلوكا !

استدار ليربت على خدها فى حنان دافق :

— أين ماما ؟!

— ذهبت إلى الصالون لتضع اللمسات الأخيرة !  
احتواها تحت ذراعه وذهب بها إلى الصالون الذهبي الأنيق حيث  
كانت الأم تزيل بعض الأتربة العالقة على تماثيل صينية دقيقة لامعة تمثل  
كيوييد إله الحب وهو يصيب بسهمه قلب أمير وسيم ساحر من العصور  
الحوالي ، في جلسته تحت شرفة فتاة في عمر الورود وتشبه ثريا إلى حد  
كبير !

جلس الأب على الأريكة الكبيرة وإلى جواره ثريا ، في حين فتحت  
الأم الباب الزجاجي المطل على شرفة أخرى ثم جلست على مقعد صغير  
بالقرب منه وهي تنظر في ساعتها الذهبية الدقيقة :

— باقى من الزمن خمس دقائق ! هذا إذا كان دقيقا في مواعيده !

ابتسم الأب ابتسامة كشفت عن التشابه بينه وبين ابنته :

— ألا تنوين حضور حفل آخر للزار !؟

لم تبسم الأم للدعابة التي حرص زوجها على تكرارها في الأيام  
الأخيرة :

— أرجوك .. لا تذكرنى بتلك الليلة الكريهة !!

واصل الأب دعابته المرححة :

— لقد حرمت ثريا من أهم مراجعها الدراسية !

— إنها حرة في حضور ما تشاء من حفلاتها !

تدخلت ثريا في الحوار متسائلة :

— وكيف أجرؤ على حضور حفلات نوال مرة أخرى .. بعد أن

أهنت الكودية في بيتها !؟

أجابت الأم وقد فقدت روح الدعابة تماما :

— لا تتوقعي أبدا أن أعتذر لهذه المعنوية !

واصلت ثريا الحوار :

— لقد منحت الكودية مجدا لم تكن تحلم به !! لا بد أن المدعوات

اعتقدن أن إغماءك كانت نتيجة لغضب الأسياد عليك !؟

كانت الأم على وشك أن تفتح فيها لكن الأب التقط الخيط :

— عليك أنت يا ثريا بالاعتذار .. حتى تحصلى على أكبر مادة ممكنة

لرسالتك !؟

— كيف !؟

— أبدا .. الموضوع في منتهى البساطة .. يمكنك استخدام حازم في

التمهيد لإعادة المياه إلى مجاريها !!

— إن هذا الموضوع بالذات يسبب حيرة بالغة لحازم .. فقد سألتني

مرارا عن السر في إصراري على حضور الحفل الذي يتناق تماما مع عملي

وعقلي .. فأجبت في كل مرة أنه حب استطلاع لا غير !! لكن حساسيته

المرهفة منعت من الاقتناع الكامل وإن لم يفصح !

استأنف الأب عرض اقتراحاته :

— بل ويمكنك أيضا أن تزورى الكودية نفسها في بيتها لتعتذري عما

بدر من أمك .. بل ولتؤكدى لها أن غضب الأسياد لم ينقطع عنا منذ

تلك الليلة الرهيبة !

نظرت الأم إلى زوجها في عتاب رقيق :

— أتعلم ابتك الكذب !؟

ضحك الأب ضحكة منطلقة صافية :

— أنتكرين أنك أصبت بحالة من الكآبة استمرت معك أكثر من

أسبوع ١٢

أشاحت بوجهها بعيدا في حين قالت ثريا :

— إنها فكرة جديرة بالتخطيط وإن كانت في حاجة إلى الجرأة !

ومض الإصرار في عيني الأب الخضراوين :

— إن الجرأة والإمساك بزمام المبادرة من أهم أسلحة المشتغلين بعلم

النفس !

دق جرس الباب الموسيقى . نهضت ثريا لفتحه في حين قال الأب

لزوجته وهو ينظر في ساعته :

— جاء في ميعاده تماما .. وهذه ظاهرة صحية !

دخلت ثريا وخلفها رشيد الذي قدمته :

— الدكتور رشيد !

ثم اشارت بابتسامة مشربة ببعض الحمرة إلى أبيها وأمها :

— بابا !! ماما !!

امتدت الأيدي للمصافحة وتبادل السلام والتحيات ثم أشار الأب إلى

مقعد في الصدارة قائلا له :

— تفضل يا دكتور رشيد .. أهلا وسهلا !

جلسوا فساد الصمت للحظات . تأملته الأم بعينين متفحصتين

مزوجتين بشبح ابتسامة . إنه ليس في وسامة من تقدموا لطلب يد ثريا

قبله . لم يخفف وجوده في انجلترا الأربع سنوات متصلة من سمرة . شعره

خشن ، لم يهتم كثيرا بتشذيبه . يضع على عينيه نظارة تدل على طول

نظره . يرتدى حلة خفيفة تقترب من لونها من الحلل العسكرية ! ترك

قميصه الزيتي تحتها مفتوح العنق بلا رباط . لكنه طويل القامة ورشيق

القوام مثل زوجها ، وإن كانت شفتاه غليظتين مثل شفاه العجر . قطع الأب جبال الصمت :

— هذه فرصة سعيدة يا دكتور رشيد !

خرج صوته جهوريا رصينا بنيرات واضحة هادئة :

— إننى يا دكتور أكثر سعادة بالشرف الذى نلته اليوم !

سعد الأب برقته ودبلوماسيته :

— علمنا أنك قمت بتدريس ثريا فى السنة الأولى والثانية !

أخرج من جيبه محفظة جلدية صغيرة فتحها وأخرج كبسا من التبغ

وغليوننا :

— كانت من أنبغ تلاميذى .. كانت مناقشاتنا أعلى من مستوى سنها

بكثير .. لدرجة أننى لا أزال أتذكرها حتى الآن !

لم تشأ الأم أن تلزم الصمت أكثر من هذا :

— ابن الوز عوام !

حياها رشيد بضحكة رقيقة عابرة فى حين لاحظته الأب وهو يشعل

غليونه بتبغه المعطر :

— هل تدخن الغليون منذ فترة طويلة !؟

أدرك رشيد أن الأب وضعه على مقعد الامتحان منذ أول لحظة :

— إنها عادة سيئة أجبرنى الإنجليز على ممارستها !

ابتسم الأب متسائلا فى إعجاب :

— كيف !؟

— كمصرى وجدت نفسى أعانى من وحدة قاتلة مع بداية حياتى

هناك .. ظننت فى أول الأمر أن الإنجليز يتجنبون لأننى غريب قادم من



دولة طالما حاربتهم حتى حصلت على استقلالها .. لكننى بمرور الأيام اكتشفت أن الإنجليز أنفسهم يتجنبون بعضهم بعضا .. لا أحد يزور أو يخاطب أحدا .. وإذا حدث فكلها لقاءات عابرة وحديث عن الطقس أو العمل !! أما فيما عدا ذلك فهم يقضون وقت فراغهم فى متابعة التليفزيون أو قراءة الصحف أو التدخين !! كل هذا فى صمت قاتل مثل سكون شوارعهم بعد الخامسة مساء !

ازداد إعجاب الأب بقوة ملاحظته ودقة تحليله :

— وطبعاً لم تجد لعبة تشاركك وحدتك سوى الغليون !!

ابتسم رشيد لتجاوب الأب معه :

— خاصة وأنه يحتاج إلى تنظيف وتسلية مستمر ! لكن على كل

حال .. فإننى لاحظت أن استخدامى له قد قل كثيراً بعد عودتى إلى

مصر .. ويبدو أن دفء الجو والناس سيجعلنى أتخلص منه فى النهاية ..

إنه مجرد عادة .. لا أكثر ولا أقل !

نهضت الأم وفتحت علبة الشيكولاتة الذهبية الموسيقية الموضوعية

على المنضدة الرخامية الصغيرة وقدمت منها لرشيد فتناول قطعة شاكرًا ،

ثم دارت بها على الأب والابنة . وضع رشيد القطعة فى جيبه وواصل

تدخين غليونه الذى أحببت ثريا رائحة عطره . جلست الأم قائلة

لرشيد :

— كنت أود أن تقابل ابنى وابنتى الأخرى .. لكنهما فى الخارج

فابنى يدرى الإلكترونيات فى الولايات المتحدة .. وابنتى تدرس الباليه فى

الاتحاد السوفيتى !

— كلمتى ثريا عنهما !! وفقهما الله ليعودا بكل ما يتمناه !

سعدت الأم بألفاظه العذبة في حين قرر الأب أن يحسم الموضوع وهو ينظر من طرف خفى إلى ساعة يده :

— وماذا عن استعدادك للحياة الزوجية ؟!

أطلق رشيد نفسا طويلا عميقا من غليونه :

— حصلت على شقة من الشقق المخصصة لهيئات التدريس في

الجامعة .. ولن يستغرق تجهيزها فترة طويلة ! كذلك فقد عدت من

إنجلترا بسيارة جديدة !

شعر الأب بأن رشيدا يسبقه متطوعا بكل الإجابات على الأسئلة

المحتملة حتى يوفر عليه مشقة الاسترسال فيها :

— وهل فكرت مع ثريا في تحديد ميعاد الخطبة ؟!

— لم ولن أفكر في أى شيء إلا معكما !

— لا بد أن يكون القرار قرارا كما .. فهي حياتكما أولا وأخيرا !

تحلى رشيد عن كل أقنعة الدبلوماسية :

— خير البر عاجله !

— وهو كذلك !

قالها الأب ونهض مستأذنا ناظرا في ساعته :

— آسف .. لن أستطيع الاستمتاع بالجلسة أكثر من هذا .. لا

أحتمل ترك مرضاي ينتظرون !

انتفض رشيد ومعه ثريا وأمها وقوفا ، لكن الأب ضغط على كتفه

محاولا إعادته إلى مقعده :

— لا ترتبط بى .. فالبيت بيتك .. واصل جلستك وناقش كل

التفاصيل على مهلك .. عن إذنكم !

لم يترك الأب فرصة لرشيد سوى أن يقول له وهو مسرع إلى باب الشقة :

— هذا شرف كبير يا دكتور .. مع السلامة !  
أغلق الأب الباب خلفه في رقة سعيدا بهذا الشاب الذي تربع في قلبه من أول وهلة . كان واثقا أن ابنته لن تختار أى زوج ! إنها ابنته وهو أدرى بها !

هبط في المصعد حتى الجاراج الذى خرج منه بسيارته في حين كان حازم لا يزال قابعا في شرفته وعيناه معلقتان بشرفتها . لمح سيارة أبيها تنطلق لكنه لم يعرف إذا كانت في صحبته أو لا تزال في شقتها؟! عادت عيناه للتعلق بشرفتها !

كره بسيم حياته وهو يراها تتسلل من بين أصابعه كالماء ، أو تنجرف مع طوفان نوال الذى أوشك أن يكتسح في طريقه كل ما بناه أبوها ، وكل ما دفع أباه إلى تزويجه منها بصرف النظر عن إرادته الشخصية ، فهى على أية حال لم يكن لها وجود حقيقى ! وها هى الدوائر تدور كى يفقد فى النهاية ما أضاع حياته كلها من أجله ! هل كتب عليه أن يحصد الهشيم نتيجة لما فعله بتلك المسكينة فى تلك الليلة المشؤمة ؟ إنه لا يعرف إذا كانت حية أو ميتة ؟ وهل يمكن أن يكون قد تسبب فى موتها ؟ كم عذبه ذلك الإحساس الممض بالذنب ؟ والآن يذكره الانهيار المقبل عليه بتلك البؤرة القديمة التى لا تزال تنضح بالقيح والعفن !

لم يتوقف الأمر عند حدود الورشة التى أوشكت على غلق أبوابها نتيجة لهروب الأسطوانات الكبار منها ، بعضهم إلى دول البترول والبعض الآخر إلى ورش الانفتاح ذات الآلات الحديثة والأجور العالية ، بل جرف الطوفان صحته أيضا . إذ استيقظ ذات صباح على دقات قلبه وقد فقدت انتظامها ، وعندما عاده الطبيب وأجرى له رسما كهريا أمره بالتزام الفراش عشرة أيام قبل أن يعود مرة أخرى ، مع تناول الأقراص التى كتبها له ! وعندما كشف عليه للمرة الثانية كانت الضربات قد انتظمت لكنه اشتكى من دوار وجفاف فى اللعاب ، فطلب منه تحليلا للدم والبول ، وظهرت النتيجة تعلن إصابته بالسكر !

وبدأ نظاما غذائيا قاسيا أدى إلى هبوط كرشه . وحاول أن يستغل إصابته بالسكر في الحصول على زمام المبادرة في الورشة كي يديرها كما يرى ، متعللا بأن احتكاكه بالعمال وتدهور العمل وعجزه عن التحكم في مجريات الأمور يمكن أن يؤدي إلى الإفلاس بالإضافة إلى المرض ! لكن دهوله كان ساحقا عندما وجد زوجته تؤكد له بمنتهى البرود والبساطة والبلاهة أن غضب الأسياد كان السبب في كل ما جرى له ، خاصة وأنه تكلم عنهم بسخرية عندما اضطر إلى ترك البيت مع حازم ليناما ليلتى الزار في شقة أبيه بالمنيل ! في تلك اللحظة تأكد بسيم أن نهايته ستكون على يدي تلك المعتوهة إذا استمر في التعامل معها بهذا الأسلوب ، وهي التي ظن أبوه أن سعادته واستقراره ورفاهيته ستكون على يديها ! أه لو أدرك هذه الحقيقة وهو في عنقوان شبابه وصحته؟! أم أنه كان يدركها ويتعamy عنها؟! هل كان في إمكانه أن يفك هذا القيد الذهبي الذى أحاط به أبوه يديه والذى تحول مع الأيام إلى قيد حديدي اختفى تماما تحت طبقات من الصدأ؟! أصبح لا يدري من أمره شيئا!! حتى الإجابات الصريحة تراوغه أو هو يراوغها؟! لا يعرف! إذ يبدو أن زمن مواجهة الحقائق والتصرف على أساسها قد ولى ، أو أنه لم يأت أصلا ولن يأتى !

ما الذى يجرى في هذه الدنيا الغريبة؟! حتى ثريا التى تتشدد بالعلم هى وأمها ، تحضر الحفل بدعوى حب الاستطلاع في حين تسقط أمها مغشيا عليها فيزداد خوف الحاضرات من غضب الأسياد وشوقهن المحرق للحصول على بركتهم ورضاهم وسماحهم ! وهى القصة التى تندررت بها بوجته عشرات أنثرات أمام الجميع ، مؤكدة سر الأسطى الطفاف

الباتع ! وكان قد سعد في أول الأمر ببوادر الوقية بين زوجته وأمه بعد الحفل الأخير ، ظنا منه أن أمه قد زهدت أخيرا في الزار ، ويمكن أن تنتقل عدواها إلى زوجته ، لكن خيبة أمله المتجددة دوما أكدت له أن الوقية نتيجة لغيرة أمه القائلة من نوال التي بدا من تصرفاتها أنها تنوى الاستئثار بكل حفلات الزار القادمة في شقتها !

كم تمنى أن ينزل الله بصاعقة على تلك الكودية الكريهة !؟ لكن حتى الأمانى التي عاش في ضوء سراها ، وأسعدته برغم ثقته من أنها لن تتحقق ، قد فقدت قدرتها على خلق عالم الوهم الجميل ! هل يمكن أن يطلقها ويبدأ حياته من جديد مهما تكن النتائج ؟ أم أن عليه انتظار قدره وليكن ما يكون !؟ أمام هذه الأسئلة يكاد عقله يصاب بالشلل ، كما أصيب دمه بالسكر وقلبه بالاضطراب !

كذلك عجز عن احتواء ابنه المشتت الضائع اللاهث وراء الأوهام ، بل عجز عن مجرد الاقتراب منه ! صحيح أنه انتقل إلى السنة التالية بتفوق ، لكنه يعيش على وهم هذه الجارة الجميلة . وربما كان يتمنى الزواج منها برغم فارق السن بينهما ! واضح أنه يتعبد في محرابها ليل نهار ، نتيجة لتجاوبها معه ورعايتها له ! لكن ماذا يمكن أن يحدث لو سئمته ، أو دخل حياتها حبيب أو خطيب شغلها عنه !؟ إنها لا يمكن أن تتعلق بمراهق مثل حازم دون أمل محدد ! فهي فتاة تعرف وقع أقدامها تماما قبل أن تخطو خطوة واحدة !

كاد عقله أن ينفجر في جلسته في غرفته الزجاجية داخل الورشة برغم أن ضجيج الآلات قد خف كثيرا بعد توقف أكثر من نصفها نتيجة لهروب العمال أو لعطل ليس له قطع غيار . جاء الساعى ليخرجه من

الأسئلة والإجابات التي تكاد تخنقه :

— بالخارج سيدة تدعى بنفسج تطلب مقابلتك !

ارتعش جفنه الأيسر في تساؤل عفوى :

— مقابلتى أنا ؟!

— نعم !

— ألم تقل ماذا تريد ؟!

— كل ما قاله إنها تعرف أسرة حضرتك منذ زمن بعيد !

تأكدت شكوك بسيم عندما نطق الساعى باسمها . إنها بنفسج المنشدة التي طالما جاءت في صباحها مع الأسطى ربحانة ، ثم عملت فيما بعد مع الأسطى أطفاف كما علم من زوجته ! شعر بإثارة غامضة تجتاحه من أصابع قدميه حتى سيطرت على صلغته التي فقدت لمعانها كثيرا في الأيام الأخيرة ! هل أرسلتها أطفاف إليه ؟! ربما أخبرتها نوال بخوفه من عواقب هذه الحفلات ؟! أم أنها جاءت من تلقاء نفسها ؟! ولماذا لم تأت لزيارته في البيت ؟! وكيف عرفت مقر عمله ؟! إنه ليس سرا على أية حال ! ربما أرادت أن تخبره بشيء في غيبة نوال ؟!

— ماذا أقول لها ؟!

خرج بسيم من ضرب أحماسه في أسداسه على تساؤل الساعى الذى أجاب عليه بنفس العفوية :

— دعها تدخل !

اختفى الساعى وبعد لحظات دخلت امرأة تناهز الستين ، لكنها تبدو أقل من هذا بكثير . تندفق الحيوية من مشيتها ووجهها المحاط بشعر طويل مصبوغ بالخناء ، وجسدها المشوق الملقوف في رداء بنفسجى لامع

بعض الشيء ، وعينها العسليتين النافذتين ، وحاجبها الرفيعين  
الدقيقين . مدت يدها بالسلام فنهض بسيم محيا مرحبا وأجلسها أمام  
مكتبه :

— هل تذكرنى ؟

— أنت المنشدة بنفسج ؟

— حضرتك تتمتع بذاكرة قوية !

لم تخفف المروحة الكهربائية ذات الضجيج من عرق الإثارة تحت  
إبطيه ، ومن رطوبة الغرفة الزجاجية الخائقة :

— تحت أمرك !!

— العفو يا قدم !!

ثم ترددت قليلا فى بحثها عن مدخل مناسب للموضوع الذى جاءت  
من أجله ، فى حين تركزت عيناه الحائرتان على شفتيها :

— فى الحقيقة .. الموضوع الذى أتيت من أجله موضوع قديم  
جدا .. وكان يجب على أن أوضحه لحضرتك منذ زمن بعيد .. لكن كل  
شئ بأوانه .. ويبدو أن الأوان قد آن أخيرا !!

علت ضربات قلبه فخشى أن يصيبها الاضطراب مرة أخرى :

— لا داعى لهذه المقدمات ؟ أنا على استعداد لسماع كل شئ !

اتكأت بمرققها على حافة المكتب :

— الموضوع خاص بجماليات التى عملت فى خدمتكم منذ عشرين

عاما !

لم يستوعب بسيم الاسم ، وإن امتصه وجدانه تماما :

— تقولين .. من ؟



— جمالات التي طردت من بيتكم لأسباب لا نعلمها .. وإن كانت قد ادعت أنك أردت الزواج منها .. فطاش صواب أليك وظل يسبها ويضربها ليلة بطولها بتهمة أنها هي التي أوحى إليك بالفكرة لأنه كان يخطط لتزويجك من الست نوال !!

هل يفتح الماضي بابَه الخيف على مصراعيه بهذا الشكل المفاجيء المذهل؟! بحث بسم عن سؤال أو تعقيب يسد به الهوة التي فتحت بالقرب من قدميه لكنه عجز . استأنفت بنفسج بثقة أكبر :

— ثم ادعت أن الهوان الذي لقبته على يدي أليك ذكرها بما لقبته على يدي زوجها في قرية أبي الغيط .. والذي لم يخلصها منه سوى سقوطه تحت أسنان النورج التي قطعت جسده إربا ! ولا يعقل أن يلقي بها أبوها في القاهرة ليوصل الآخرون إذلالها وتعذيبها لذنوب لم ترتكبها ، فما هكذا يكون رد الجميل !

رقص قلبه طربا عندما تأكد أن جمالات لم تفش السر القديم . استعاد رباطة جأشه متسائلا :

— وكيف قابلت جمالات وعرفت منها كل هذه الادعاءات؟! — يبدو أن حضرتك لم تعلم عنها شيئا منذ طردها من بيتكم .. جمالات هي الكودية الطاف التي يخطب الجميع ودها الآن !

هل يمكن أن يعود الماضي الميت إلى الحياة كأقوى ما تكون الحياة؟! صحيح أن أمه لاحظت التشابه بين جمالات وألطفان عندما رأتهما لأول مرة ، لكنها هي نفسها استبعدت أن تكون الاثنتان شخصية واحدة !! لا بد أن ما تقوم به ألطفان مع نوال ليس مجرد حفلات زار وإنما هو الانتقام بعينه ! حتى أمه عبرت عن دهشتها من الفروق الشاسعة في

التكاليف والأجور بين الأسطى ربحانة والأسطى أطفاف ! رأسه يكاد  
ينفجر لكن عليه أن يصل إلى قاع هذه المرأة الغامضة !  
— ألا تصدقنى !؟

انتزعه سؤال بنفسج من بين أمواج العرق والقلق والحيرة :  
— أبداً .. لكن لماذا لم تقصى هذه القصة المثيرة على زوجتى !؟  
لعلها تعرف أطفاف على حقيقتها !؟

— زرتها منذ يومين فكانت على وشك طردى . وكنت أعلم أن  
ورشة بسيونى للخراطة والميكانيكا فى وكالة البلح قتلت أشد الرجال  
إليك حتى أفضح حقيقتها لمن أكلت من خيرهم والآن تحاول  
استنزافهم !

— يبدو أن ثقة زوجتى بالأسطى أطفاف ثقة مطلقة !؟  
استرخت بنفسج فى مقعدها وهى تتابع من خلف الجدار الزجاجى  
الشرى الذى يتطاير من بعض آلات الورشة :  
— اهتمتى زوجتك بخيانة أطفاف .. وحذرتنى من غضب  
الأسباد !

ألقى بسيم السؤال الذى كان يتحرق شوقا إليه :  
— لكن ما مصلحتك فى كل هذا وأنت تعملين معها !؟  
اتكأت بمرفقها مرة أخرى على المكتب ولملمت ذيل ثوبها :  
— لك الحق فى هذا السؤال .. فقد فاض نى الكيل وأنا أراها بطول  
عشرين عاما تستولى بالتدريج على عقل الأسطى ربحانة ثم على قلب ابنها  
كافور ثم على ثروتها واسمها وزبائنها .. وأخرج أنا من المولد بلا حمص بعد  
أن أفنيت عمري فى خدمة الأسطى ربحانة وكنت آمل أن أخلفها ..

فكثير من المنشدات تحولن إلى كوديات .. لكن هذه العقرب وقفت في طريقى .. وعندما عرضت عليها منح فرصة العمل لابتسى سوسن معها .. رفضت بمنتهى الصفاقة .. تلثم الخير كله وتمنع عن الناس مجرد الفئات !

أصبح صوت بنفسج في كلماتها الأخيرة مرتعشا أجوف لكنه لم يخجل من صرامة . مسح بسيم عرق صلعته وجبهته وعنقه بمنديل أبيض مدسوس بين أوراق المكتب :

— ألا تخافين أن يصل اليها خبر وشايتك بها .. فتطردك من العمل ؟!  
— الرزق بيد الله .. كما أنتى على وشك التقاعد بعد أن ألحقت ابنتى سوسن بالعمل عند كودية الدرب الأحمر .. وإن كانت تعد فقيرة بالمقارنة باللطاف !!

تراجعت الإثارة كى تبرع الحيرة على قلب بسيم مرة أخرى :  
— وماذا تريدن منى أن أفعل ؟!

اندهشت بنفسج الحيرة الأطفال المتراقصة فى عينيه :  
— ليس لى أن أقول لك هذا يا سعادة البك ! كل ما أردته أن تعرفوا حقيقة الكودية التى تستنزف أموالكم ! فى حين أننى على استعداد أن أقيم لكم نفس الحفلات بأقل من نصف التكاليف والأجور التى تحصل عليها  
اللطاف ؟!

إذا .. فالعملية كلها تجارة رابحة ليست لها علاقة بالأسياذ الذين يبدو أنهم مجرد أوهام :

— يبدو أنه فى إمكان أى إنسان أن يصبح كودية .. فالأمر ليس فيه ما نظن من الأسرار والطقوس والتعاويد والتمام !!

أشاحت بنفسج بوجهها بعيدا تجاه الشرر المتطاير من الآلات :  
— هذا هو سر المهنة الذى لا يمكن أن أبوح به .. وإلا تعرضت  
لبطش الأسياد !

ثم شدت عنق ردائها وبصفت فيه :

— دستور يا أسيادى .. السماح والرضا يا أسيادى !

لم يجد بسم كلمات يملأ بها فراغ الضجيج الصامت سوى :

— وهل تتوین أن تتركها قريبا ؟!

— الفكرة موجودة .. لكننى لم أحدد ميعادا لتنفيذها بعد !

— ربما استعنت بك قريبا !!

ومضت عيناها العسليتان فيما يشبه التشفى :

— وأنا تحت أمرك !

— أرجو أن يكون ما دار بيننا سرا ؟!

— كنت على وشك أن أرجوك نفس الرجاء !

قال كمن يحدث نفسه :

— لا يمكن أن أترك الأمور تجرى فى أعنتها هكذا ! لابد أن أفعل

شيئا !

تقلصت أصابع يدها اليمنى على خدها :

— وأنا خادمتك يا سعادة البك !

نهضت وقد شعرت بأن هامتها قد زادت طولاً :

— عن إذتك .. لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. وسأكون على

اتصال بحضرتك حتى أنفذ أوامرك !

نهض بسم وقد عجز عن إخفاء حيرته :

— لم تشرى شيئا بعد !

ضغطت على يده بالسلام الحار :

— لست ضيفة !! يكفينى هذا اللقاء !

تركت يده وغادرت الغرفة الزجاجية بكلمات السلام والانتصار :  
— السلام عليكم !

لم يرد بسيم بل ظل واقفا ذاهلا ثم جلس دون تفكير : فى بدء اللقاء عندما بلغه السر المذهل شعر بنشوة الانتصار لأن الأوان قد آن أخيرا لضرب الكودية فى مقتل ! لكن بمرور اللحظات المثيرة عاوده الإحساس القديم بالهزيمة المستمرة والإحباط المتجدد ! إن حقيقته أبشع من حقيقة أطفاف ! فليس هناك ما تخجل منه ! فالارتقاء من حياة الخادمة إلى قمة الكودية ليس عاراً ! إنه مجد بكل مقاييس المهارة والذكاء بل العبقريّة ! أما حياته هو فيمكن أن تتلاشى بمجرد أن تعرف زوجته سره مع جمالات أو أطفاف ! لا .. إنه ليس سلاحا ذا حدين .. بل مجد واحد .. وفى يد أطفاف التى يمكن أن تقطع به عنقه فى أية لحظة نشاء !!

رأسه يكاد ينفجر ! كيف يحصل على هذا الكم الخفيف من الأسرار والمعلومات المذهلة دون أن يستطيع أن يطعن به غريمته ؟! إنها تتصرف بمنتهى الثقة فى النفس والتحدى له لإدراكها أن السر الذى يبدو أنها لا تزال تحتفظ به ، يشكل خطورة عليه أبشع من خطورته عليها ! إنها — على أسوأ الفروض — ستطلق من زوجها ، لكنها ستظل الكودية الشهيرة الثرية التى يخطب الجميع ودها . أما هو فلو فقد حياته الزوجية فإنه سيفقد حياته كلها !!

الله يلعنك يا بنفسج !! كلماتك جعلتني كالمستجير بالنار من

الرمضاء !!

كانت شمس أغسطس قد تراجعت بلهيبها حتى الأفق في عصر ذلك اليوم الخانق برطوبته حينما اخترقت السيارة الزرقاء الصغيرة الشوارع الخلفية لشارع القصر العيني حتى استوت منطلقة بجذء كورنيش النيل . لم تكن حركة المرور مزدحمة وإن أعاقها الإشارات الحمراء ، لكن الحديث العذب السلس المرح لم ينقطع داخلها :

— إنها مهمة مثيرة مثلما يحدث في الأفلام البوليسية !!

قالتها ثريا بابتسامتها العذبة التي أدمنها رشيد الذي أمتع عينيه بمسح جسدها الرقيق المثير داخل بنطلونها الجينز الضيق ، وبلوزتها الحمراء المحبوسة داخله ، وخصلاتها الذهبية التي طالت قليلا :

— الحياة بدون إثارة لا طعم ولا معنى لها !

انطلقت السيارة مع الإشارة الخضراء وكلمات ثريا :

— لاحظت تطابقا شبه تام بين آرائك وآراء بابا !

انطلق ضاحكا فاهتزت النظارة على أرنبة أنفه :

— أخشى أن تكون موافقتك على الزواج منى ناتجة عن إصابتك

بعقدة الكترا !؟

شاركته الضحك وهي تزيج بعض خصلات مراوغة على عينيها

البنى :

— بعد أن انتهيت في الكلية من دراسة كل العقد النفسية اكتشفت

أننى مصابة بمعظمها !!

تحولت ضحكته إلى صخب مرح :

— الحمد لله .. فكل الذين يظنون أنهم محصنون ضد الإصابة بهذه

العقد هم أكثر الناس إصابة فعلية بها !

كست الجدية عينها الخضراوين المتسائلتين :

— لم أكن أتصور أن حماسك لدراستى عن الزار سيفوق حماس بابا

لها ١٩

— تعلمت فى إنجلترا أنه إذا كانت القواعد النظرية العامة للعلوم

الطبيعية والإنسانية مشتركة بين كل الشعوب . فإن تطبيقاتها تختلف من

بقعة إلى أخرى اختلاف بصمات الأصابع ! وهذه هى المهمة الملقاة على

عاتق علماء كل بلد على حدة !

ابتسمت وهى تخرج مندبلا معظرا تسمح به جبينها :

— شكرا على ترقيتى من درجة معيدة إلى مرتبة عالمة بهذه البساطة !

— ليس للتفوق العلمى علاقة بالسن !

كان سور مجرى العيون على يسار السيارة المنطلقة إلى كوبرى الملك

الصالح :

— هل تعتقد أنها ستقبل اعتذارى ببساطة وسترحب بى فى حفلات

مدام نوال بعد كل ما صدر من ماما ضدها ١٩!

انحرفت السيارة يمينا مخترقة الكوبرى :

— لا بد أن تثبتى أن دهاء العلم أقوى من دهاء الجهل .. كما أنه لم

يصدر منك أى شىء بصفة شخصية .. ولست مشغولة عن تصرفات

أمك !! وعليك أيضا أت تنذرعى بالحجة التى ابتكرها أبوك .. فألطف

بهما .. ولو في عقلها الباطن .. أن تتأكد من سيطرة أسيادها على الجميع .. حتى لو لم تكن مؤمنة بها هي نفسها !  
— كل ما أريده أن أحضر الإجراءات الكاملة لحفل واحد .. فأنا لم أسجل سوى ما شاهدته حتى فقدت ماما أعصابها !! وإن كان ما تبقى ليس سوى النهاية واللمسات الأخيرة للحفل طبقا لمعلوماتي النظرية !  
توقفت السيارة في إشارة مرور ميدان الروضة :

— الزار مادة خصبة لتحليلات علم النفس .. فالنساء اللاتي يحضرن الزار يعتقدن أنهن يعانين من بعض الأمراض .. أو أنهن سيصبن بالمرض إذا لم يقمن بعمل معين يجنبهن الإصابة .. بل إن كل واحدة منهن حالة في حد ذاتها تستحق التحليل والدراسة .. برغم اشتراكهن جميعا في الاستجابة المستيرية سواء بالتعلم أو بالتقليد !

— بالإضافة إلى وجود القلق طبعا !

— طبعا !!

انطلقت السيارة مع الإشارة الخضراء :

— والكودية تطلب من المدعوات نسيان متاعبين طوال حفل الزار حتى يستفدن منه .. وإذا كانت المرأة في حالة انفعالية شديدة فإن الحفل يساعدها على التخلص من القلق .. وكثيرا ما يحدث في حالة الشعور بالإثم أن تعتقد النساء أن الأسياد هم المسئولة عن متاعبها فتشفى بعد الزار شفاء مؤقتا !

ابتسم رشيد وهو ينطلق بالسيارة بحذاء النيل :

— ستكون رسالتك للماجستير متعة لا حدود لها !

واصلت ثريا تحليلها بنفس الجدوية :



— وكذلك تلجأ نساء الزار إلى الإيحاء كوسيلة للهروب من الواقع وذلك بدخولهن في حالة من الغيبوبة أو الإغماء .. وكما تعلم فقد أثبت علماء النفس أن الإيحاء الجماعي أقوى أثرا من الإيحاء الفردى .. وفي حالة انتشار الجهل بين الموحى إليهم أو إليهن .. فلا يوجد أى مجال للتفكير أو التحليل أو النقد .. وبذلك تصبح عملية الإيحاء أسهل !  
أبطأت السيارة من سيرها حتى توقفت بجذء الطوار المقابل لقيلا الأسطى أطفاف . دقق رشيد ببصره خلف نظارته :

— ها هي الثيلا الصفراء رقم ١٣ !

دق قلب ثريا دقات سريعة متتابعة في حين أخرج رشيد من درج السيارة غليونه :

— سأنتظرك هنا .. لا تحملى همى .. فإننى مغرم بمشاهدة غروب الشمس على صفحة النيل !!

كانت الشمس الخفيفة لا تزال تصبغ الموجات المتراقصة في رقة يبريقها الذهبى الدايب ، في حين فتحت ثريا الباب وأخرجت ساقها اليمنى :

— ألم تعدنى بالامتناع عن التدخين بعد أن أدمنتنى !؟

ابتسم رشيد مرتبا على وجنتها في رقة :

— لم أعد أدخن إلا في الحالات التى لا أنشغل فيها بعمل ما .. وهى حالات .. كما تعلمين .. نادرة ! لكننى سأمتنع عنه تماما في القريب العاجل برغم أنك تحبين رائحته المعطرة !

كانت ابتسامتها مزيجاً من العتاب والدلال والعذوبة :

— لا تقلق .. لن أتأخر .. فهى زيارة عمل !

هبطت من السيارة وأغلقت الباب في رقة . عبرت الشارع ورشيد يتابع خطواتها الرشيقة الحاملة في بنطلونها الضيق وبلوزتها الحمراء المحبوسة داخله وخصلاتها الذهبية التي تماوجت مع بعض هبات من النسيم عابثة . اختفت ثريا داخل القिला : صعدت على درجات السلم الرخامي ثم ضغطت على الجرس . فتح الباب وأطلت بنفسج بوجهها المحاط بشعرها الطويل المصبوغ بالحناء ، وعينيها العسليتين النافذتين ، وحاجبيها الرفيعين الدقيقين :

— تفضلي .. الأسطى في انتظارك !

قادتها فوق سلم حلزوني ودقات قلبها تتابع فوق كل درجة حتى دخلت خلفها غرفة أنيقة مكيفة الهواء تطل على النيل ، ومعطرة ببقايا رائحة بخور نفاذة ! نهضت ألطاف بردائها الأبيض الطويل شبه الشفاف ومدت يدها بالسلام مرحبة :

— أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة !

— أهلا بك يا فندم !

أجلستها إلى جوارها في حين كانت بنفسج لا تزال في وقتها الفاحصة عند الباب . قذفتها ألطاف بكلمات مفاجئة :

— لست في حاجة إليك اليوم .. يمكنك الانصراف إلى بيتك

الاستعداد لحفل الغد !

— وهو كذلك !!

قالتها بنفسج في اقتضاب واختفت في لمح البصر . لم تدر ثريا ماذا تقول فلزمت الصمت الذي قطعتة ألطاف بسؤال كالسيف :

— هل أنت متزوجة أم مطلقة !؟

ذهلت ثريا لكنها تماسكت متذكرة كلام رشيد عن دهاء الجهل  
ودهاء العلم . أجابت بسرعة محسوبة :

— لا هذا .. ولا ذاك .. لماذا ١٩

— من الذى أحضرك هنا ١٩

لمحت ثريا عبر زجاج النافذة الداكن سيارة رشيد الزرقاء وقد تركها  
ليجلس على السور الحجرى يتأمل الغروب ويدخن الغليون :

— إنه خطيبى ا

— وبماذا يشتغل ١٩

إنها امرأة خطيرة بكل معانى الكلمة ا يجب أن تفكر قبل أية إجابة ا  
فليس هناك ما يجبرها على الاندفاع ثم السقوط فى برائتها :

— ألا تعلمين شيئا عن مهنته ١٩

خرجت كلمات ثريا حريصة هادئة محددة :

— إنه يعمل مع أبيه فى تجارة الخردة والحيش ١١

— يبدو أنه لم يتخرج فى الجامعة ١٩

سعدت ثريا بالإجابة الضمنية التى قدمتها ألفتاف دون أن تدرى ،  
فأكدت لها ما يدور فى عقلها الباطن :

— إنه يربح أضعاف أضعاف مرتبى من الجامعة .. ولذلك فأنا أفكر

جديا فى ترك العمل لأنفرف للبيت بعد الزواج ا

استرخت ألفتاف فى مقعدها الوثير :

— وهل يعرف من التى جئت من أجل زيارتها هنا ١٩

— إنه من أشد المؤمنين بالزار ورضا الأسياد ا

هدأت دقات قلب ثريا واسترخت قليلا فى مقعدها ، لكن الأسئلة

تتابع دون أية مهلة للتفكير المتأنى :

— ولماذا لم يصلح التليفون لمناقشة الموضوع الذى جئت من أجله ؟!

— لك الحق كل الحق فى أن ترفضى لقائى بعد الفضيحة التى بدرت

من أمى والتى لا تزال تدفع ثمنها غاليا حتى الآن !

وقعت الكلمات على قلبها مثل قطرات ماء على أرض قاحلة :

— هل هذا هو ما جئت من أجله ؟!

— نعم !

— لم يجبرها أحد على أن تفعل ما فعلته !!

— ضحك الشيطان على عقلها ونجح فى الإيقاع بها !

بصقت ألطاف فجأة داخل فتحة ردائها الواسع الشفاف :

— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

اهتزت ثريا للحركة المفاجئة هزة أسعدت ألطاف التى ظنت أن

ضيفتها أصبحت تحت سيطرتها تماما :

— إذا كنت قد جئت للاعتذار فهذا أمر لا يهمنى فى كثير أو قليل ..

المهم خوفي عليها من غضبهم الذى لا بد من تجنبه !

— كرم أخلاقك هذا يدفعنى إلى مصارحتك بأنها لم تعد كما كانت

منذ تلك الليلة .. فقد انهارت أعصابها تماما وفقدت كل حيوية ونشاط !

بل وبدأت فى الإحساس بالآلام فى المفاصل .. خاصة فى أصابع اليد !

أشاحت ألطاف بوجهها بعيدا وهى تتأمل رشيدا الذى عاد إلى

الجلوس داخل سيارته :

— هذا هو ما خشيته تماما !! عرضت نفسها لما قبل لها به !!

تأملت ثريا السجادة العجمية الفاخرة تحت قدميها وأخرجت كلماتها

بخنوع وذلة :

— وما العمل الآن يا أسطى 14

— العمل عمل ربنا !! لا بد من رفع غضب الأسياد !

— المصيبة أنها لا تزال تحت غواية الشيطان .. وتصر على عدم

حضور حفلات الزار مرة أخرى !!

أزاحت نهرا متدفقا من شعرها الأسود الطويل اللامع خلف عنقها ثم

ركزت عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين على وجه ثريا الوردى

الناضح ببعض بلورات العرق برغم الهواء المكيف :

— فى هذه الحالة ليس لدى ما أفعله من أجلها ! ليس هناك هروب

من المكتوب !!

قالتها أطفاف بصوت جهورى يفتعل الجلال والمهابة . قررت ثريا أن

تلقى بأخر سهم فى جمعيتها :

— ربما لو حضرت أنا حفلات حضرتك .. فمن المحتمل أن أجبها

معى مرة أخرى لعلها تنول رضاهم وتنقشع عنا الغمة التى أحالت حياتنا

جحيفا !

امترج إعجاب ثريا بنفسها بخوف دفين من إجابة أطفاف التى

تأخرت قليلا على غير عاداتها :

— أهلا .. وسهلا بك يا حبيبتى !

رقص قلبها طربا واستمرأت لعبة الدهاء :

— لا حرمنا الله منك ومن بركاتك .. فليس لنا سواك يقينا غضبهم

ويجلب لنا رضاهم وسماحهم !

نهضت ثريا واقفة لتهرب بالفوز الكبير الذى اقتنصته من بين محالها :

- لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. فأنا أدرى بقيمته !  
ظلت أطفاف على جلستها واضعة ساقا على ساق :  
— لكن لم تقولى شيئا عما تدرسينه فى الجامعة ؟  
أسقط فى يدها عندما سقط عليها السؤال كالصاعقة :  
— أقوم بتدريس علم النفس !  
ندمت على الإجابة المتسرفة لكن أطفاف منحتها فرصة دون أن  
تدرى :  
— علم ماذا ؟!  
— إنه علم الأرواح !  
عاود أطفاف الندم القديم لعدم تعلمها القراءة والكتابة ، لكن روح  
التحدى داخلها سرعان ما طردت الندم وقلوله :  
— وماذا علمك هذا العلم ؟!  
استعادت ثريا زمام المبادرة فى وقفها أمامها :  
— تعلمت من حفلك أضعاف أضعاف ما عرفت من هذا العلم !  
صبت نظراتها على عينيها الخضراوين لعلها تستشف منهما أية مجاملة  
أو خداع ، لكنها استراحت لهذا الجمال البريء الذى لا يمكن أن يحتوى  
على شكوكها ! مدت أطفاف يدها دون أن تنهض فشددت عليها ثريا باسمه  
سعيدة مستأذنة مسرعة إلى الخارج حيث احتوتها سيارة رشيد وأطفاف  
تتابعها خلف زجاج النافذة الداكن بعينين كالصقر .  
انطلقت السيارة العبقة ببقايا عطر الدخان فى حين دس رشيد الغليون  
فى درج السيارة . كانت سمرة الغروب تلف الكون بأرديتها الرمادية  
الشفافة ، والنيل يسير الهوينى فى صمته المهيب .

- هل نجحت في الامتحان ١٩
- امتياز مع مرتبة الشرف الأولى !
- التنفيذ سار طبقا للخطة الموضوعة ١٩
- بالحرف الواحد !
- توقفت السيارة بين طوابير السيارات عند الإشارة الحمراء :
- لولا السيارات المحيطة بنا لقبلك قبل طويلا عميقة !!
- هزت سبابتها محذرة في دلال :
- اياك أن تظن نفسك في إنجلترا !!
- جلجلت ضحكته المرححة المنطلقة مع السيارة :
- عندما أكون معك لا أدري أين أنا بالضبط !
- على كل حال .. كلها عدة شهور قليلة .. بعدها أنتقل للحياة معك في شقتك !!
- إننى في انتظار هذه اللحظة كالمراهقين !
- لكن ماذا نفعل في إصرار ماما على تأجيل الخطبة إلى أكتوبر بمجرد أن أرسل أخى بدر خطابا يخبرنا فيه بقدومه من أمريكا في زيارة لمدة أسبوعين ١٩
- شهران لا يعتبران تأجيلا .. المهم أنك معى يوميا تقريبا !
- ما هذه الحكمة التى هبطت عليك فجأة ١٩! ألم تقل أنك فى انتظار هذه اللحظة كالمراهقين ١٩
- شاركها انطلاقها الضاحك :
- لم أقل لحظة الخطبة وإنما لحظة الزواج !!
- ضربته فى دلال على كتفه واجتاحها رغبة ساخنة بوضع رأسها ( الكودية )

عليها ، لكنها عدلت عنها . فقد أصبح السير في شوارع القاهرة مثل قيادة سيارة كهربية في مدينة الملاهي ، وكان رشيد يحاول جاهدا تهادى الأخطار المنطلقة يمنة ويسرة بعد أن اعتاد السير في خط مستقيم لمدة أربع سنوات في إنجلترا ، خاصة بعد أن ارتطمت سيارة أجرة بالباب الأيسر الخلفى لسيارته بعد خروجها من الجمرک بأسبوع واحد ، واضطر إلى قضاء ثلاثة أيام إلى جوار السمكرى والدهان حتى أعاد الباب إلى سيرته الأولى .

اخرقت السيارة شوارع جاردن سيتى حتى خرجت إلى شارع القصر العيني حيث وقفت أمام باب العمارة . ومضت خضرة عينيها الداكنة مع أضواء السيارات المنطلقة في الجانب الأيسر من الشارع :

— هيا أغلق السيارة واصعد معى !

ابتسم سعيدا بالدعوة :

— لا أريد أن أثقل عليكم !

جذبه من ذراعه في دلال :

— كفاك ثقلا واصعد !

خرجت من السيارة وانتظرته على الطوار . خرج مسرعا سعيدا وأغلق الباب . في تلك الأثناء كان حازم معسكرا كعادته في الشهرين الأخيرين في الشرفة لعله يملأ عينيه بنور وجهها بعد أن حرم منها بمجرد ظهور النتيجة ، ولم تعد لديه الحجة التقليدية في التردد عليها أو ركوب عربتها في طريقها إلى الجامعة أو العودة منها . وكان قد تذرع بأكثر من حجة في الفترة الأخيرة للتردد عليها ورؤيتها ، لكنها لم تكن موجودة ، وكانت إجابات الأب والأم غامضة رقيقة ، وإن كان قد لمح عدم



الارتياح في عيني الأم ، فأثر أن يعتكف في الشرفة من حين لآخر لعله  
بظفر بلمحة أو نظرة أو ابتسامة !

لمح السيارة الزرقاء الصغيرة وثرىا تخرج منها فقفز على أطراف أصابع  
قدميه وقلبه يكاد يقفز من على سور الشرفة . رأى رشيدا يدخل في خفة  
وسعادة معها . سقط قلبه في قاع قدميه . هل يعقل ما يراه !؟ من هو !؟  
إنه ليس أخاها ، فهو يتذكر ملامحه جيدا ، ولو كان قد عاد من أمريكا  
لعلم بوصوله في التو والحال ! قلبه يحدثه بخواطر مخيفة ومشاعر مرعبة !  
ربما كان سيء الظن فهي لم تخبره بأى احتمال من هذا القبيل ! هل  
يتصور أن تتخلى عنه بهذه البساطة وتسلبه النور الذى عاش على هديه !؟  
لابد أن يقطع الشك باليقين !

جرى ليفتح باب الشقة لعله يفتعل لقاء بمحض الصدفة يعرف من  
خلاله هذا الغريب الغامض ، لكن الباب المقابل كان قد أغلق على  
ضحكات خلفه اخترقت قلبه كالرماح المسمومة ! لعن خواطره المترددة  
التي أضاعت منه الفرصة . أغلقه وعاد أدراجه فإذ بصوت أبيه من غرفة  
المكتب :

— لماذا فتحت الباب يا حازم !؟

— أبدا .. ظننت أنني سمعت الجرس !

عاد إلى الشرفة التى بدت وكأنها تميد به ! لن تمر الليلة قبل أن يعرف  
من هو !؟ حتى لو ارتكب حماقة ندم عليها عمره كله ! لم يستطع  
الجلوس فانشئ على السور يكاد لا يرى حركة الشارع أو يسمع ضجته !  
ظل يذرع الشرفة جيئة وذهابا حتى سطعت في ذهنه فكرة أراحته  
قليلا ! سيظل مرابطا حتى مغادرة الغريب الغامض البيت وسيذهب إليها

ليعرف من هو حتى لو كان بعد منتصف الليل !! لكن لا بد من اختراع حجة يتعلل بها !

أسرع إلى غرفته ليستبدل بيجامته بقميص وبنطلون حتى يستعد لما هو قادم عليه ! بانتهاء المهمة وعودته إلى الشرفة عثر على حجة معقولة : سيقول لها إنه لمح أخواها قادمًا معها فقرر أن يسلم عليه لأنه أوحشه كثيرا بعد هذه الغيبة الطويلة ! عندئذ سيجيرها على التصريح بهوية الغريب الغامض !

فكر في اقتحام شقتها أثناء وجوده لكن قدميه لم تتحملا الانطلاق تحت وطأة الفكرة ! كان عليه أن ينتظر وقتا ثقيلا ممضا لا يقاس بالثواني وإنما بدقات القلوب ونبضات العروق ! لم يحتمل حركة الناس المنطلقين في الشارع بين السيارات المجنونة فدخل ليجلس في الصالة حتى يرصد أى صوت يمكن أن يصدر عن الباب المقابل ، وفتح بين يديه رواية رومانسية كان قد بدأ قراءتها عصر اليوم حتى لا يسأله أبوه عن سر جلوسه في الصالة وإضاعة الثريا الضخمة .

لكن أباه ظل في مكتبه ، في حين خرجت أمه من الحمام إلى غرفة نومها في سكون ونشوة لا معنى لها ! دفن عينيه بين سطور رواية « آلام فيرتر » للشاعر الألماني جيته ، مستمتعا بالحزن الدفين السارى بين سطورها برغم عدم تركيزه لتراقص الكلمات والسطور أمامه . رأى نفسه في بطلها فيرتر بوجهه الشاحب الحزين ، وعندما تتبع بطلتها تشارلوت لم يجد مناصا من أن يرى فيها ثريا ، خاصة وأن التشابه بينهما في الوجه والجسد كان شبه تام !

كان حازم في الثلث الأخير من الرواية . وكثيرا ما دفعه نهمه للقراءة

إن الاتيان على رواية طويلة في يوم واحد . كثيرا ما ساءل نفسه : ماذا  
يمكن أن يفعل بنفسه وبوقته لو لم يمنحه الله متعة القراءة ؟ تقدم بين  
ظهور الرواية يطويها مستشعرا النهاية الرومانسية المأسوية لبطلها ، والتي  
أثرت داخله قلما غامضا وخوفا دفيناً ! هل يمكن أن يؤدي به تعاطفه مع  
بورتو إلى أن يبلغ نهايته !؟

لدغه خاطر العقرب فارتعش الكتاب بين أصابعه وتمردت أوراقه !  
إن هذا الغريب الغامض يشبه الدكتور رشيد الذي عاد أخيراً من إنجلترا  
و يقوم بتدريس السنتين الثالثة والرابعة ! صحيح أنه لم ير سوى أعلى  
أسسه ثم ظهره قبل أن يدخل مع ثريا ، لكنه يبدو أن النظر من الشرفة  
وقت حلول الظلام يجعل الأشياء تبدو مختلفة تماما عن الواقع !! إنها فعلا  
عربته الزرقاء وإن بدت داكنة !

نهض لاهثاً إلى الشرفة ليطل ويتأكد فتأكد ! بل تذكر أنه رأى هذه  
العربة مرتين أو أكثر في المكان نفسه ! وتذكر أيضاً أنها تبادلت معه بعض  
الأحاديث في حديقة الكلية وممراتها ولم يعر الأمر التفاتاً في ذلك الحين .  
كان مشغولاً بالتقدم إلى الامتحان كما أن ثريا شخصية محبوبة من أعضاء  
هيئة التدريس الذين لا يشبعون من طلاوة حديثها ! لكن الأمر يبدو  
مختلفاً تماماً هذه الليلة !

عاد إلى جلسته في الصالة المضيئة بالثريا البلورية الكبيرة ألقى  
بالرواية على مقعد ركني غير عانى بقطرات العرق المنهمرة خلف أنفيه  
وعلى عنقه . الأمر أخطر مما تصور ! كان يمكن أن يضحك على نفسه  
ويعلمها بأنه جاء لتصحيح أوراق الإجابة معها لو أن النتيجة لم تكن قد  
ظهرت بعد ! لكنها أعلنت منذ شهر ! هل يمكن أن يكون قد خطبها !؟

لو تمت الخطبة لكان هو أول من علم !! هل يمكن أن .....؟! أستغفر الله العظيم . ليست ثريا هي التي تفعل هذا !

أحس بخلايا مخه على وشك الانفجار ! كان يتمنى أن يراها ولو للحظة ، فإذا بكيانه كله يتداعى عندما جاءت تلك اللحظة ! إنه لا يعرف ماذا يريد منها بالضبط ؟! لكنه لا يحتمل أن يستولى أى بشر على معبودته ! فهو ببساطة يسلبه حياته لأنه يعيش من أجلها ! ومع ذلك كيف سمحت لنفسها أن تتخلى عنه بهذه البساطة ؟! ألا تعرف أنه لولاها لكان قد رحل عن هذا العالم منذ زمن بعيد ؟!

أطفأ أبوه نور غرفة المكتب وإذ به يقف أمامه :

— غرفة المكتب أنسب للقراءة من هنا !

اهتز كيانه المهش على كلمات أبيه الذى أصبح جلده فضفاضاً على جسمه فى الأيام الأخيرة :

— غرفة المكتب حارة أكثر من اللازم .. والرطوبة هذه الليلة

خائفة !

— الشيء الوحيد الذى تحرص عليه أنك لا تطيع لى كلمة واحدة

ولو على سبيل السهو والخطأ !

فكر عقله المشلول فى إجابة مناسبة لكن أباه وقر عليه هذه المشقة

ودخل غرفة نومه فى هدوء . عاد حازم إلى التخبط بين لجج الحيرة

والقلق والألم واليأس والمرارة ! هل يمكن أن يظل طوال الليل هكذا ؟!

وماذا يفعلان بالداخل ؟! على أية حال فإن أمها موجودة على أقل

تقدير !

تحول إلى آذان صاغية ترصد ديبب التملة على عتبة السلم ! سمع الباب

لتقابل يفتح فهرع للنظر من ثقب المفتاح لكنه لم ير شيئا ! أرهف السمع  
اصطدمت أذناه بهمسات وضحكات أعقبتها أصوات كالقبيلات !  
تعشت قدماه في وقفته المنحنية وإذا بصوت المصعد يقف ويفتح  
أصوات أخرى كالقبيلات ثم يغلق ويهبط ويعقبه صوت إغلاق الباب  
لتقابل !

دارت الصلاة به ! تردد للحظات ! قرر أن يتصرف دون تفكير !  
لم يفكر من شأنه أن يشل حركته تماما ! فتح الباب وصوت أبيه من  
الداخل يتساءل لكنه لم يعبا ! كان الظلام يغمر السلم فلم يهتم بإضاءة  
النور ! ضغط على الزر الذى يعرف مكانه باللمس ! أضيت الصلاة  
وفتح الباب وإذا بمعبودة عمره تقف أمامه متسائلة في ذهول :

— خيراً ؟! يا حازم !! ماذا فى الأمر ؟!

تلعم لكن الكلمات تدفقت دون رابط :

— أبدأ .. رأيت أخاك قادما فقلت أسلم عليه لأنه أو حشنى كثيرا !  
ظنت ثريا أن مكروها أصابه :

— أخى من ؟! أخى بدر ؟! إنه لن يصل قبل أكتوبر القادم !!

تراجع خطوتين إلى الوراء :

— آسف .. لا بد أن الأمور اختلطت على !

اقتربت لتبين ملامح وجهه الشاحب الحزين :

— متى رأيت أخى ؟!

أخيرا انداح الزلزال وفتح البركان فوهته :

— رأيتك يدخل معك !

تداركت ثريا الأمر فحاولت أن تضىف عليه جوا من الدعابة

والمرح :

— آه .. إنه الدكتور رشيد الذى سيقوم بتدريسك فى العامين القادمين بإذن الله !

سادت لحظات من الصمت ، فهمت ثريا فيها معنى علامات الاستفهام والحيرة المترافقة فى بريق عينيه الخائى وذقنه الذى لم يخلق منذ يومين أو ثلاثة :

— لقد خطبنى .. وسيعقد حفل الخطبة فى أكتوبر القادم بعد وصول بدر من أمريكا .. وستكون أنت ضيف الشرف بالطبع !  
ابتسمت وقد اكتسى وجهها بحمرة طالما عشقها ! لم يدرك أبعاد ما كان يجرى ويقال ، لكنه شعر أنه انقسم إلى شخصين ، وإذا بالشخص الآخر يتسم ويمد يده مهنتا :

— ألف مبروك .. ألف مبروك !!

شدت ثريا على يده فسرت حرارتها فى يده الباردة المخضبة بالعرق :

— عفى لك يا حازم !

— ألف مبروك .. ألف مبروك .. تصبحين على خير !  
كان الشخص الآخر يسلك مثلما يسلك كل الناس فى مثل هذه المواقف . لكن بمجرد عودته التحم الشخصان عندما اصطدم بأبيه المرابط خلف الباب !

— ماذا كنت تفعل عندها فى هذه اللحظة من الليل !؟

— أبداً .. إنها جارتي وأستاذتي ومن حقى أن أكلمها فى أى وقت !

— أى موضوع ملح دفعك إليها فى مثل هذه الساعة !؟ لا تتصور أن

جلوسك فى الصلاة كان بسبب جوها المنعش .. فأنا لم أصل إلى هذه

الدرجة من الغفلة بعد ؟!

طفحت قمم المرارة على لسانه :

— أليس هناك في هذا البيت غيرى لتفرض عليه سلطتك ؟!

خفض من صوته وهو ينظر تجاه غرفة النوم :

— لسانك الطويل لم ترثه عن غريب !

أفسح حازم لنفسه ثغرة نفذ منها :

— عن إذنك !

ثم هرع إلى غرفة نومه ليغلقها على نفسه وسط ذهول أبيه وحيرته  
وقلقه عليه ! ارتدى على فراشه دون أن يغير قميصه وينظفونه أو يخلع  
حذاءه ! ظل يتقلب على سرير أصبح قاربا بلا مجاديف أو دفعة في مواجهة  
العاصفة التي لا بد أن تغرقه في قاع لجحجها . لم يخاطر بباله في أية لحظة من  
اللمحظات أن يقع ما وقع برغم أنه لم يكن بعيد الاحتمال بأية حال من  
الأحوال ! كان سعيدا برفضها طابور الخطاب الذين جاءوا يتلمسون  
موافقتها لدرجة أن شيئا داخله أوحى إليه بخاطر سعيد جزل : إنها  
رفضتهم لأجله ! لكن يبدو أن الوهم الجميل هو الشيء الوحيد في هذه  
الدنيا الذى لا حدود له ، حتى يفاجأ الإنسان بها وهى تطبق عليه من  
كل جانب حتى تكاد تحطم ضلوعه وتمنع الهواء عن رئيه ! كم جلس إليها  
تشرح له ما استغلق عليه من نظريات علم النفس واتجاهاته المتعددة في  
التحليل ؟! كم عشق عطرها المفضل وكم استعادته أنفه في غيابها ؟! كم  
ضاعت عيناها ظلام لياليه ؟! كم طبع كل لحظة وكل لفتة وكل حركة وكل  
بتسامة وكل ومضة في مخيلته التى أحالها إلى معمل لطبع كل صورها  
والاحتفاظ بها ملونة حية ؟!

كان يذاكر ويتفوق من أجلها ! إذ لا يعقل أن تدفعه إلى النجاح ثم  
تؤذنها ! كان ملتقى حسد زملائه وغيرتهم ! فقد كانوا يتبارون هم أيضا  
في الإعجاب بها والاقتراب من سحرها بقدر الإمكان ! كم حسدوا  
سعيد الحظ الذى سيفوز بها !؟ لكنه كان واثقا فى قرارة نفسه أنه لن  
يكونه وهم بدورهم لا يقصدونه ! برغم ركوبه السيارة الصغيرة الحبيبة  
إلى جوارها والتمتع بصحبتها ! كانت فى حياته أعلى من أى مستوى من  
مستويات البشر العاديين التقليديين ! لم يغفر لعينيه ذات مرة تسللها إلى  
أعلى فخذيها عندما هبطت من عربتها فى فستان ضيق قصير ، فانفجرت  
ساقاها معلنتين عن قطعة من قماش أسود شبه شفاف ! اعتبر نفسه مجرما  
فى حقها لدرجة أن الحمرة اكتسحت شحوب وجهه !

ومرة أخرى تصادف وجود عائلتها فى الإسكندرية مع عائلته . وكان  
يملو لها أن تسير على شاطئ المعمورة بطوله فى مايوه يضاهى خضرة  
عينها . كانت العيون المتألمة فى حياء أو المنطلقة فى صفاقة سهاما إلى  
قلبه وهو يسير معها ! كم تمنى أن يملك القدرة على أن يقول لها إنها أروع  
وأسمى من أن تلتهم العيون الفانية جسدها الرقيق الساحر المبهر !

ومرة ثالثة كاد أن يقتل نفسه كمدا وإحساسا بالذنب عندما حلم أنه  
يقبلها فى عنف وجنون ، وعندما استيقظ وجد ملبسه الداخلية مبتلة  
كالأطفال ! انتابته حالة من الغيثان لم يخفف منها سوى استحمامه  
واعتبار نفسه غير مسئول عما يدور فى عقله الباطن الذى كمن فى داخله  
شئ غامض زين له طلب الصفح والمغفرة منها ، لكنه لم يجرؤ على خطوة  
كهذه !

كانت أسعد لحظاته المتدفقة بالنشوة الصافية عندما يرى بريق عينها



في ضوء الشمس والسيارة تتهادى بهما بين حديقتي الأورمان والحيوان  
في طريقهما إلى الجامعة ، أو عندما يلمح نور وجهها عندما تسطع عليه  
كشافات السيارات المقابلة في طريق عودتهما ، أو وميض خصلاتها  
الذهبية قبل الغروب وهي جالسة في شرفها !

كانت الجانب المضيء المشرق في حياته ، أما الجانب الآخر فلم يكن  
سوى التشتت والضياع واليأس والملل والإحباط : أم تعيش في عالم  
مجنون كرهه من خلق أو هامها وخزعبلاتها وجهلها ، وأب مغلوب على  
أمره لا يجد أحدا غيره ليفرض عليه سلطانه الضائع تحت أقدام زوجته !  
تقلب في الفراش أو تقلب الفراش به ! لم يدر ! امتزجت اليقظة  
بالنم ! تلاشت الحدود بين أحلام اليقظة المضيئة وكوابيس الظلام  
الدامس ! زاره رشيد مبتسما لكنه هرب منه ليهوى من الشرفة ويحطم  
رجاج سيارته ! جلس في رعب ثم غفا مرة أخرى لسمع دقات الزار  
تسبق زفاف ثريا إلى رشيد الذي قادها إلى غرفة النوم ذات الأضواء  
الحمراء الخافتة وأغلق الباب خلفه بعد أن رمقه بنظرة ساخرة سعيدة .  
هض فزعا في فراشه الغارق في بحار العرق ثم غفا مرة أخرى ليجد رشيدا  
يحاول اغتصابها وهي تستغيث به ! حاول إزاحته لكنه رفضه في مكان  
حساس أصابه بما يشبه الغيوبة التي لم تنحسر إلا مع خيوط الفجر وهي  
تسلل من خصائص النافذة مع بعض أبواق السيارات المبكرة !

تبلور الإحساس الغامض الذي بدأ مع الصدمة إلى فكرة محددة بدت  
في الأفق كثفرة وحيدة يمكنه النفاذ منها هربا من هذا الجحيم المستعر  
وقائلا لنفسه : بيدي لا بيد رشيد ! فكر في أن يكتب إليها خطابا لكنه  
لم يشأ أن يعكس صفوها . يكفى أنه سيرهن لها كم أحبها حتى العبادة !!

وكم يتمنى لها من السعادة قدرا أكبر وأعم من السعادة التي أسبغتها عليه !  
ذهب إلى الحمام حيث حلق ذقنه بيد مرتعشة ثم غسل وجهه . خرج  
وهو يحففه فاصطدم بأبيه الذي سألت عيناه المغلفتان بحمرة الأرق  
و-هذان الأبوة ، ينبوع من التوسل والاعتذار والتواصل :

— صباح الخير يا حازم !

أجاب باقتضاب حزين :

صباح الخير يا بابا !

— لا تؤاخذنى يا بنى ... إنه قلب الأب الذى لن تعرفه إلا عندما

تدبح فى المستقبل بإذن الله !

... العفو يا بابا .. أنا الذى كنت عصيبا أكثر من اللازم !

غمرة رغبة عارمة لتقبيله واحتضانه :

— واعل أعصابك تكون قد هدأت الآن ؟!

ترجع الأب أن يعود عليه سؤاله بما يشفى غليل استطلاعهم ، لكن ابنه

انطلق إلى غرفته تاركاً له كلماته المفتضة :

... الحمد لله !

لم يبق ف الأب إذا كان قد ظل بملابسه طوال الليل ، أم أنه ارتداها

فى الصباح الباكر على غير عادته . دعا الله فى قلبه كى يحافظ عليه من كل

مكروه . وبعد جرد تجهيز الإفطار دعاه ليجلس ثلاثهم إلى المائدة ، حيث

لم يرفع الأب عينيه عنه ، ولم يظفر منه بإجابة سوى أنه ارتدى ملابسه

لأنه قرر التردد على النادى لممارسة الرياضة . وبرغم عدم اقتناع الأب

تماما بالإجابة ، فإنها أثلجت صدره المشتعل قليلا وصرفت نظره عن

الاستمرار فى الجدل !

هبط حازم على درجات السلم دون انتظار للمصعد . تنفس  
سعداء وهو يسير على الطوار لا يعرف لنفسه جهة محددة . نظر إلى  
بني حيث شرفتها التي كانت مغلقة ! ابتسم في حنان قاتل ثم قاده قدماه  
كورنيش النيل فسار في نفس الطريق الذي كثيرا ما طواه معها في  
بنتها الحبيبة . وجد نفسه بين حديقة الأورمان على يمينه وحديقة  
بنيان على يساره . دقت ساعة الجامعة دقائقها الجليلة تدعوه إلى الدخول  
لحل . لم يكن هناك سوى بعض الطلبة والطالبات في هرولة لقضاء  
بعض المهام ، لكن المكان الذي كثيرا ما ضاق بهم كان خاويا على  
بروشه . سار في نفس الممرات داخل الكلية التي تركها إلى الحديقة  
شرفا إياها إلى المكتبة . أخذ مرجعا وجلس في مقعده المتصل لكن  
سطور تماوجت أمام عينيه . لم يحتمل خناجر الوحدة فغادر الجامعة إلى  
بني الأورمان حيث وجد صيدلية مفتوحة الأبواب فدخلها !

ذرع بسيم غرفة مكتبه كحيوان حبيس في قفص . كان قد عاد في  
مغرب ذلك اليوم من الورشة وقد أيقن أنها لا بد أن تغلق أبوابها تماماً في  
ظرف شهر على أكثر تقدير بعد أن تسرب منها العمال مثل الماء من بين  
أصابع الكف دون أن يملك ما يوقفهم . وها هي نوال لم تعد حتى الآن  
إلى البيت لانهما كها في استعدادات الحفل الذي نصحت به الكودية حتى  
يرضى الأسياد عنهم وترجع الورشة إلى سابق عهدها ! إن جمالات تنتم  
منه بطريقة لا تخطر ببال بشر !! لكن عليه أن يحسم أمره ، ولو مرة  
واحدة في حياته ، خاصة وأن الورشة كانت الرابطة الأساسية بينه وبين  
زوجته ، وها هي على وشك الإفلاس والإغلاق !

أما ابنه فمند أن عاد إلى البيت وقد أغلق على نفسه باب غرفته ! إن  
قلقه عليه يكاد ينهش كبده ، لكن عليه أولاً أن يحسم موضوع الورشة  
والزار ، ثم يتب له لابنه ووحيدده ! الورشة والزار جبلان شامخان وعران  
عليه أن يتسلفهما بمنتهى الإصرار والصمود والحرص حتى لا يجد جسده  
أشلاء متناثرة عند السفح ! هذه المرة يشعر أنه أكثر قدرة على قبول  
التحدى . فلم يعد هناك ما يخشى ضياعه بعد أن أوشكت الورشة على  
الضياع باستمرار زوجته في طريقها وإصرارها عليه ! لم يعرف بسيم أن  
اليأس يمكن أن يمنح الإنسان طاقة هائلة لا تعباً بأحاسيس الخوف  
المرتبطة بالحرص على الأمل أو بالنسعى لتحقيقه. أصبح كل خوفه منصبا

لم وحيدته ، وعليه أن يحسم موقفه من جارتها الجميلة ثريا ، وإلا جرفه  
يار كما جرف نوال والورشة من قبل ! لن يظل مكتوف الأيدي حتى  
تد حياته نفسها وهي تتسرب من بين أصابعه كما تسربت الورشة ! لم  
تجد هناك مجال للتردد والتراجع والاستسلام ! التحدى كبير وخطير  
لكن لا مفر من مواجهته !

سمع صوت المفتاح يدور فى ثقب الباب ، فدارت رأسه مع تصاعد  
دقات قلبه الذى دفعه إلى الوقوف بباب غرفة المكتب . فتح باب الشقة  
ودخلت نوال وعلى وجهها تلك النشوة الغامضة المقيتة ! أغلقت الباب  
خلفها وسارت تجاه غرفة نومها وهي تنظر إليه فى دهشة متسائلة :  
— لماذا تحملق قى هكذا !؟

ثم أحدثت بشفتيها صوتا كمص الليمون ودخلت غرفتها . غلى الدم  
شرايين مخه ، فخاف من اضطراب دقات قلبه وارتفاع ضغطه ،  
فدخل فى أعقابها حيث جلست على حافة الفراش تخلع حذاءها اللامع  
بضوء :

— لم أكن أحملق فيك .. وإنما كنت أحملق فى أحوالنا التى لم تعد تثير  
بوى الرثاء !

طارت النشوة من تلافيف مخها لهذه النعمة التى سمعتها لأول مرة :  
— إياك والبطر ! فالنعمة التى أنت فيها يتمناها الكثيرون فى  
حلامهم !

فاض به الكليل ، إذ كيف يسمح لنفسه أن تمن عليه هذه الشاحبة  
الكثيية بهذا الأسلوب الذى لا يتأق إلا لمحدثى النعمة :  
— أنت التى رفضت النعمة .. فلن تنفعلك هذه الدجالة جمالات

عندما تغلق الورشة أبوابها في ظرف شهر على أكثر تقدير !  
انتفضت واقفة فتراجع دون تفكير إلى الباب :

— يبدو أن أكذوبة بنفسج الحاقدة الغادرة قد لاقت هوى عندك ؟

— لم تغبل بنفسج سوى حقائق مؤكدة .. كانت ألطاف خادمة

عندنا منذ عشرين عاما !

اتكأت بذراعها على اللوح الخشبي للسريير وهي تحك خصلاتها  
الناحلة بأصابع مرتعشة مشدودة لأول مرة :

— ولنفرض أنها كانت خادمة عندكم !! يكفيها رضا الأسياد الذين

رفعوها إلى هذه المكانة الرفيعة المرموقة !!

راودته نفسه بالانسحاب لكن هجمة عاتية داهمته . كان عليه أن  
يصمد لها وإلا فالانسحاب النهائي قدره هذه المرة ! ذهبت لتجلس  
على مقعدها الأثير أمام المرأة ووميض مخيف يشع من عينيها الخائبتين ذكره  
بذلك الوميض الذي شع منهما لمدة أسبوع أو أكثر في أعقاب حفل الزار  
الأخير . استدارت لتداهمه بالسؤال :

— وكيف تأتي لك أن تجزم أنها جمالات ؟ هل رأيتها ؟

عاد إليه ترده القديم كأقوى ما يكون ! انحنى قليلا للعاصفة العاتية

حتى يلم شتات أفكاره المتناثرة مع هباتها :

— لم أرها ! وإنما بنفسج رأتها عندما كانت تتردد على بيتنا مع

الأسطى ربحانة !

— ولماذا صمتت بنفسج كل هذه المدة ؟ ولماذا رضيت لنفسها أن

تعمل في خدمة خادمة ؟

استمر في مقاومته المستميتة :

— بنفسج تُشكر على كل حال ! فقد عرفنا بسر يهمننا تماما !  
نهضت مرة أخرى لتقف في مواجهته :

— ولماذا لا تراها حتى تقطع الشك باليقين !؟

ها هي القشة التي قصمت ظهر البعير ! تداعى الماضى كله في ذهنه  
كخليط مشوش مشتعل ! إن جمالات التي خططت كل هذا للانتقام منه  
لكفيلة بإفشاء السر وسحقه تماما ! وربما ادعت أن لها ابنا أو ابنة منه !  
تراجع قليلا إلى الباب :

— لم أقل لك هذا إلا على سبيل النصيحة الخالصة لوجه الله . وأنت  
حرة تماما في الأخذ بها أو إلقائها في صندوق القمامة !

استراحت لتقهقره فعادت إلى مقعدها الأثير الوثير . فكر في مغادرة  
الغرفة لكن فكرة طارئة أوقفته . فكرة كنيزك من الفضاء الخارجى أضاء  
مشتعلا بمجرد دخوله الغلاف الفكرى لمحّه :

— وكيف جرؤت بنفسج على هذا الادعاء الكاذب دون خوف من  
غضب الأسياد وبطشهم !؟

تلقت نوال الطعنة بصمود تحسد عليه :

— أحيانا يطول صبرهم لمنح البشر فرصة التوبة .. لكن صبرهم لن  
يطول إلى الأبد .. وسيجىء يوم ترى فيه بنفسج عبرة لمن يعتبر ! ولذلك  
لم أفتح الأسطى ألطاف في موضوع زيارتها لى ! وإن كنت قد لقتها  
درسا في الإخلاص والوفاء !

عاد ليواجهها في جلستها برغم كل المخاطر المحتملة . فقد تأكد لأول  
مرة أنه نجح في هز أعماقها :

— على كل حال فلم يكن هذا هو الموضوع الذى أردت فتحه

معك ! وإنما كنت أريد أن أناقش بصراحة وبلا لف أو دوران مستقبلنا !  
فلم أعد أحتمل أن أرى الورشة تغلق تدريجياً أمام عيني وأنا أتفرج عليها  
لا أستطيع حياها شيئاً !!

علا صوتها لتكتسح البقية الباقية من صموده :

— أنت السبب في كل الخراب الذى حل بالورشة !!

ود لو سحقتها بقبضته ! لكن أين هي قوته البدنية بعد أن نهش  
الضغط والسكر جسده ؟ لم يطالب نفسه بالصمود والتحدى يوم كان  
جسده قادراً على مساندتها ! والآن عليه أن يتجرع الكأس حتى الثمالة :  
— هل بلغت بك القدرة هذا الحد من قلب الحقائق رأساً على  
عقب ؟!

ارتعشت شفتها السفلى ونبراتها آخذة في التصاعد :

— جحودك لفضلهم علينا وإنكارك لسرهم البائع قد جرا علينا هذه  
المصائب التى تحاول أن تذكرنى بها ليل نهار !

شعر بساقيه ترتعشان تحته فجلس على حافة الفراش :

— لا داعى لارتفاع صوتك .. فلم أصب بالصمم بعد .. كما أن  
حازماً فى غرفته ولا أحب أن ننشر غسيلنا القدر أمامه دائماً !  
اجتاحها الدهول . لم تعهد فيه من قبل مثل هذا الإصرار على  
المواجهة :

— يبدو أن هذه الليلة لن تمر على خير !

استمرأ صموده وإحساسه بكرامته العائدة حتى لو دفع كل شيء ثمناً  
لها :

— إذا كان الأسياد غير راضين عنى .. فلا بد أنهم راضون عنك وعن



كل ممتلكاتك وفي مقدمتها الورشة ؟!

هل بلغ به الأمر والتبجح والجحود درجة التعريض بهم وبها :

— ستدفع الثمن غالبا لإصرارك على إفساد كل ما أصلحه !

استمر في حديثه متجاهلا كلماتها :

— كان من الممكن أن نرفع أجور العمال وحوافزهم ومكافآتهم ..

وكان من الممكن أيضا تصليح الآلات المعطلة بقطع غيار جديدة أو حتى

بإحلال آلات حديثة تماما من الأموال التي تبخر يمينا ويسرة على الحفلات

إياها !!

تساقطت قطرات الاشمزاز من عينيها وهي تنظر في المرآة :

— منذ متى كنت قادرا على حل أية مشكلة ؟! اترك لي الأمر برمته

فأنا كفيلة بعلاجه بطريقتي الخاصة !!

أغرق لعابه المر لسانه فنهض حتى الباب :

— إنك لا تفكرين إلا في نفسك وحفلاتك ! أما زوجك وابنتك فلا

وجود لهما في حياتك ! إن حياتنا سويا لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل !

قفزت من مكمنها لتلدغه بكلمات كالطلقات :

— أتهددني بالطلاق على آخر الزمن بعد أن تقلبت كل هذا العمر

الطويل في خيرى وخير أرى ؟! هذا الخير الذى انحسر على يديك ؟!

— لن أخاف من علو صوتك !! يمكنى أن أبدأ من الصفر طالما أنتم،

أملك كرامتى التى دست عليها هذا العمر الطويل الذى تشدقون به !

وقعت كلماته الهادئة كقطرات سم على لسانها :

— كنت أشك دائما فى أنك تزوجتني حبا فى سواد عيني .. لكن

اليقين جاءنى للأسف فى مرحلة متأخرة جدا .. لأول مرة تتجبرا

وتكلمنى عن الطلاق بهذه البساطة ! الطلاق الذى لم تكن تذكره ..  
مجرد ذكر .. لو كانت أحوال الورشة على ما يرام !

أدرك أخيراً أن قوة الإنسان الحقيقية هى الوجه الآخر لكرامته :  
— سمعت الجدل العقيم معك .. لكننى سأمنحك فرصة لمراجعة  
حساباتك الخاطئة .. فإذا لم تتوبى لرشدك فلكل منا طريقه فى الحياة !  
عادت إلى مقعدها بظهر للمرأة وساق يمنى مرتعشة :

— هل تكافئنى فى النهاية باتهامى بالجنون ؟ أكل هذا بسبب  
بنفسج ؟

أدرك أيضاً أن السر الذى طالما أخفاه فى الماضى كان من أهم أسباب  
ضعفه وتردده وكرامته المهذرة على يدى نوال ثم ألطاف ! ومضت عيناه  
الخائبتان وعاد إلى صلخته بعض بريقها القديم . وضع ذراعاه فى وسطه  
مستنداً إلى الباب :

— بنفسج لم تقل سوى جزء من الحقيقة .. أما الحقيقة كلها فلا  
يعرفها سوى !

عادت السخرية المريرة لتغلف نبراتهما بتساؤل وتكذيب مسبق :

— وما هذه الحقيقة التى لا يعرفها سواك ؟

استمتع بالكلمات التى تأكد من خروجها منمنقة واضحة :

— لم تكن ألطاف مجرد خادمة عندنا .. بل كانت قرية لنا تنتمى إلى  
الفرع الريفى الفقير من عائلتنا فى قرية أبى الغيط .. وعندما جاءت  
لتعيش معنا .. صور لها غرورها أن فى إمكانها أن تتزوجنى .. واستغلت  
مراهقتى وطيشى واندفاعى إلى أن أوقعتنى فى حبالها .. وعندما  
ادعت أمام أبى أننى اعتديت عليها .. طردها شر طردة فى ليلة باردة

مطيرة .. كانت ليلة رأس السنة على وجه التحديد .. وبعد ذلك اختفت من حياتي تماما .. إلى أن ذكرتني بها بنفسج .. فلم أندھش .. فقد كانت تعرف الأسطى ریحانة أيام إقامتها لحفلات أمى !

ساد الصمت المتفجر الذى ذكرها بملاحظة أمه يوم ذهبت للتعزية فى وفاة الأسطى ریحانة ومقابلة الطاف لأول مرة . لم تستطع أمه أن تخفى دهشتها من الشبه العجيب بل والتطابق بين جمالات وألطف ، بل إن بنفسج قدمتها إليهما باسم جمالات ! وإن كانت ألطف قد نهرتها لذكرها هذا الاسم !

ومع ذلك لم تحتمل نوال هذا الطوفان العاتى الذى جرف فى طريقه دعائم ذلك العالم المبر الذى أدمنت نشوته ، فلم تجد أمامها سوى التكذيب الصارخ دون أن تعباً بجسدها المنتفض أمامه لأول مرة :  
— كنت أظن أنك جاحد !! فتأكدت من أنك كاذب أيضا !! وأنا كفيلة بفضح أكاذيبك .. لا بد أن تقابلها وجها لوجه حتى تعريك على حقيقتك أمام الجميع !!

كان بسيم على وشك مواصلة التصعيد ، لكنه لم يتخل عن حرصه القديم . فمن المحتمل ألا تكون جمالات ألطف ! فهو لم يرها وإن كان قد بنى انتقامه الراهن على أقوال بنفسج :

— بعد اليوم لم يعد فى مقدورك أن تجيرينى على فعل شىء لا أرغب فى فعله !!

— إذا .. يمكننى أن أضيف الجبن إلى جحودك وكذبك !

— ثقى أننى لا أهتم برأيك فى على الإطلاق !

— ولو كان ما جرى لها على يدك صحيحا .. فإنه لا يؤثر على

مكاتها في قلبي .. بل يعلى منها درجات ودرجات .. ولولا رضا الأسياد  
عنها لما احتضنتها الأسطى ربحانة كابنتها تماما بل وزوجتها ابنا  
ووحيدها !

— لا زلت تصرين على دفن رأسك في الرمال .. لكننى لن أختنق  
معك !! فحياتى أغلى من أن أتركها فريسة سهلة بين يديك !!  
ومضت عيناها فلم تعبأ بالإهانة :

— وما رأيك في ثريا التى ذهبت إليها معتذرة مستغفرة كى تسامحها  
وتسمح لها بحضور حفلاتها مرة أخرى ؟! هل تدفن هى الأخرى رأسها  
في الرمال ؟!

أشاح بوجهه بعيدا في حزن دفين :

— لا يهمنى ما يفعله الآخرون ؟! كفانى ما فعلته هذه الثريا بابنى  
حازم الذى أصبح لعبتها المفضلة التى يمكن أن تحطم بين أصابعها أو أية  
أصابع أخرى !!

— الحقد الأسود على كل الناس ينهش قلبك !! لم يتفوق ابنك في  
دراسته إلا بفضلها !!

فجأة تذكر بسيم ابنه الذى لم يغادر غرفته منذ ساعات طويلة ، ولم  
تنم عنها أية حركة . بل ظلت مظلمة حتى وصول زوجته . خفق قلبه  
بشدة فوضع يده على صدره وانطلق إلى الصالة فوجد غرفة ابنه لا تزال  
غارقة في الظلام ! هل يمكن أن يكون قد خرج دون أن يخبره ؟! ليس من  
عادته أن يتسلل هكذا ! أو شك قلبه أن يقفز من قفصه فهجم على الباب  
وفتحه . لم يتبين شيئا فأضاء الغرفة !

على السرير كان حازم ممددا بقميصه وبنظونه دون حراك ! هجم

على ابنه يناديه ويهزه بعنف لكن حدقتى عينيه قتلناه رعبا باتساعهما  
وتحجرهما . احتضنه صارخا فجاءت زوجته قافزة لتشد منه ابنا وتهزه  
بعنف أشد ونداء أعنف . لكن حازما تهاوى في أحضانها كخرقة بالية .  
دون وعى أو تفكير قفز بسيم خارج الغرفة ، وفتح باب الشقة . لم يرفع  
يده عن زر الجرس إلا مع إضاءة النور وظهور وجه ثريا المدعورة مع  
الباب المفتوح . كاد قلبه أن يتوقف وهو يقول لها لا هنا :

— النجدة يا دكتورة ثريا .. لا أعرف ماذا جرى لحازم !؟ عيناه  
مفتوحتان ولا يرد على صرخاتنا !!

فوجئ بها تقول له :

— لحظة واحدة !

ثم اختفت للحظات كدهور عادت بعدها وفي صحبتها شاب أسمر  
خييل له أنه رآه من قبل . انطلق ثلاثتهم إلى غرفة حازم والشاب الأسمر  
يردد :

— خيرا إن شاء الله .. خيرا إن شاء الله !

كانت الأم لا تزال تحتضنه وتناديه . أمسك رشيد برسغه فظنته الأم  
طبيبا . لهج لسانها متسائلا :

— خيرا يا دكتور !

نظر رشيد لثريا قائلا بمنتهى الجدية :

— لا بد من نقله فورا إلى أقرب مستشفى !

أجاب الأب وعيناه على ابنه :

— لا نعرف مستشفى على وجه التحديد !!

— لا يوجد أقرب من القصر العيني !

— لا نعرف فيه أحداً !

— أخى طيب هناك ! أرجو أن يكون هناك الآن !!

تدخلت الأم متسائلة دون تفكير :

— وسيادتك !! أألسـت طيبيا ١٩

جذب رشيد حازما حتى صلب له عوده بعد أن أحاطه بذراعيه :

— هيا .. ليس لدينا وقت لنضيقه !

أمسك رشيد بذراع حازم اليمنى التى شدتها على كتفيه ، وأمسك بـسيم باليسرى فاعلانا نفس الشيء ! أسرعـت ثريا إلى المصعد الذى فتحت بابه عندما توقف . دخلوا جميعا وسرعان ما هبط بهم والأم تردد كلمات مبهمة غامضة لم يتبين منها رشيد وثرىا غير كلمتى « الرضا والسماح » ! سار رشيد وبـسيم بحازم بمنتهى الحرص وهما يهبطان على درجات المدخل . أسرعـت ثريا بأخذ مفتاح العربة التى كانت واقفة أمام المدخل . فتحتها لهم بحيث دخل بـسيم أولا محتضنا ابنه وإلى جواره جلست نوال بعيون زائفة مترددة كبندول الساعة . وقف بعض المارة على الطوار يتابعون المشهد فى مزيج من الدهشة والبلاهة والشروء . جلس رشيد إلى عجلة القيادة وإلى جواره ثريا . لم يقطع لحظات الصمت الرهيب داخل العربة سوى صوت المحرك الذى دار وانطلقت بهم عبر شارع القصر العينى ، وإن كانت إشارات المرور قد تحالفت على تعطيلهم مع دموع الأم وخفقات الأب . قطع رشيد الصمت وكأنه يخاطب نفسه ناظرا إلى ساعة يده :

— أرجو أن يكون نزيه موجودا فى نوبته الآن !

انطلقت العربة منحرفة يمينا لتعبر كوبرى القصر العينى حتى المدخل

الخارجى للمستشفى الكبير . برز أحد الحراس الذى دس برأسه داخلها  
عندما توقفت :

— أى خدمة يا فندم !؟

أجاب بلهجة رصينة وكلمات سريعة محددة :

— أنا الدكتور رشيد أخو الدكتور نزيه المصرى .. معى حالة

عاجلة !

— لحظة واحدة من فضلك !

قالها واختفى داخل حجرة مضيئة على يسار البوابة الكبيرة ، فى حين

توقفت نوال عن تتمتها الغامضة وقالت متبرمة :

— الأمر ليس فى حاجة إلى أخذ ورد .. ادخل يا دكتور لمقابلة

أخيك فوراً !

التفت رشيد خلفه قائلاً لها فى حنان دافق :

— أريد أن أتأكد من وجوده أولاً !

— وإذا لم يكن موجوداً !؟

— هناك من يحل محله .. لكننى سأستدعيه لياتى فوراً !

لهجت الأم بكلمات مبسوطة و دموع جافة :

— لقد جاء !

دس الحارس وجهه مرة أخرى بابتسامة مطمئنة :

— تفضل .. الدكتور نزيه فى الاستقبال !

شكره رشيد وانطلق فى لحظات خاطفة صوب مبنى الاستقبال .

هبط من العربة ومعه ثريا . خرجت الأم فأسرع رشيد بمساعدة بسيم فى

الإمساك بحازم الذى كست وجهه غلالة صفراء من الشحوب الخفيف

الذى قبع على شفثيه المطبقتين ، صعدا به على الدرجات القليلة . ترك  
بسم قياده لرشيد شاعرا بأن الله قد أرسله فاستبشر خيرا برغم وطأة  
اللحظات المظلمة . رأتهم ممرضة شابة فنية فأسرعت بالإمساك بحازم  
وانضم إليها ممرض كهل . تركهم رشيد داخلا إحدى الغرف على  
الجانب الأيسر . غاب فيها لحظات ثم خرج ومعه طبيب شاب فى معطفه  
الأبيض . كان الشبه واضحا بينهما وإن كان رشيد أطول قليلا . أمر  
الطبيب الممرض والممرضة بإدخاله غرفة مجاورة ، وعندما حاول بسم  
الدخول معهما منعه فى رقة بقوله :

— أرجوك .. انتظر خارجا .. سيكون كل شىء على ما يرام إن شاء  
الله !

احتضنت ثريا نوال على مقعدين خشبيين بجوار الباب ، فى حين ظل  
بسم يذرع الممرضة وذهابا أمام الباب المغلق . أما فى الغرفة فقد مدد  
حازم على مائدة بيضاء معدنية وشرع الدكتور نزيه فى الكشف عليه  
بالسماعة . ثم أخذ من صوان ركنى أبيض مجاور حقنة حقن بها ذراع  
حازم الذى شعر باختراقها للحمة فاهتز اهتزازة ارتاح لها الطبيب الذى  
نظر إلى أخيه هامسا :

— إنها محاولة واضحة للانتحار .. لكن طالما أنه جار ثريا ويهك  
أمره .. فإننى سأشخص الحالة على أنها تلبك معوى حاد استدعى إجراء  
غسيل له .. حتى لا يدخل هو وأسرته فى تعقيدات لا لزوم لها مع  
الشرطة .. وعليك بعد ذلك بعلاجه النفسى حتى يشعر بأن الحياة  
جديرة بأن تعاش حتى آخر لحظة فيها !

ابتسم رشيد فى حين كان الممرض والممرضة يجهزان الحراطين والمحاليل



لإجراء الغسيل المعوى . لبس الطبيب قفازا من النايلون الأبيض قائلا  
لأخيه :

— اخرج لطمانتهم عليه .. لن يمكث أكثر من ليلتين في المستشفى !  
اتسعت ابتسامة رشيد العذبة السعيدة وهو يفتح الباب ليخرج  
ويواجه بيسيم ونوال وثرثريا حوله بتساؤلات محمومة برغم ابتسامته  
المهادئة :

— كيف حاله ؟ ماذا جرى له ؟

ربت على كتف بسيم الذى واصل جسمه انتفاضة من الداخل :  
— الحمد لله .. إنه مجرد تلبك معوى حاد لن يستدعى سوى إجراء  
غسيل معوى له .. ولن يمكث في المستشفى أكثر من ليلتين !  
لهج لسان بسيم بالتساؤل الدامع :

— صحيح يا دكتور رشيد ؟

اتسعت ابتسامة رشيد وهو يربت على كتفه :

— إننى على استعداد أن أقول الحق حتى على رقبتى !

فجأة احتضنه بسيم وقبله في وجنته قبلة حارة دامعة :

— حفظك الله يا دكتور رشيد .. لن أنسى لك جميلك أبداً .. لقد

أرسلك الله في الوقت المناسب لانقاذ ابنى وحيدى !

أشاح رشيد بوجهه بعيدا حتى لا يجرفه طوفان المشاعر :

— الفضل لله وحده .. لم تكن حالته تستدعى كل هذا القلق ..

لابد أنه تناول وجبة دسمة عجز عن هضمها !

خرجت نوال من دوامة التتمتات والدعوات بطلب الرضا والسماح :

— حازم ليس نهما .. ولذلك تراه .. يا حبة عيني .. كعود

## القصب ا

كسرت ثريا حاجز الصمت المحيط بها :  
— إنه في أشد الحاجة إلى الحنان والرعاية والحب الذى عجز عن أن  
يجده فى بيته ا

دهش رشيد للملاحظة ثريا العنيفة وأيقن أن هناك خلفية لا يعرفها ،  
خلفية أكدتها كلمات الأب والأم المتداخلة اللاهثة :

— سنحيطه بالحنان والحب !! سنكون من الآن فصاعدا تحت  
أمره .. ليس لنا ابن سواه !! إنه كل أملنا ومستقبلنا !! لم يكن يسمح  
لأحد أن ييئس مكنون قلبه له !! كان منطويا دائما !! كان —

أوقفت ثريا صخب الكلمات المتداخلة الفاقدة لكل تناغم :  
— إنه لا يحتاج إلا للحب ا والحب كفييل بصنع المعجزات ا  
ربت نوال على يد ثريا المسككة بها فى حنان دافق :  
— أمرك .. أمرك ا

ساد صمت ممزوج بارتياح عميق وإن لم يخجل من بعض القلق الذى  
ترسب فى قاع يسمم الذى شغل نفسه بمتابعة حركة الأطباء والمرضين  
والمرضات وبعض المرضى أو المصابين الممددين على بعض النقالات  
المعدنية المنطلقة إلى الغرف الأخرى ، ولهج لسانه بحمد صامت لله على  
أن الأزمة التى هوت على رأسه كقبضة حديدية فبعثرت منحه إلى أشلاء قد  
مرت وصحا منها وإن كان لا يزال يعانى من آثار الكابوس ا لم يتذكر  
قلبه أو ضغطه أو قلقه من ازدياد السكر فى دمه ا كان كل همه أن يجتاز  
ابنه المحنة حتى لو قدم حياته فداء له ا

مرت اللحظات والثوانى والدقائق التى لم تصل بعد إلى الساعة ،

وتصاعد معها القلق داخل بسيم ونوال إلى أن فتح باب الغرفة وخرج الدكتور نزيه والعرق يتصبب على جبينه وأسفل عينيه الباسميتين :

— الحمد لله .. كل شيء على ما يرام .. إنه في حاجة إلى راحة

تامة .. سيقضى هنا يومين ثم ينتقل إلى بيته لإكمال علاجه !

ابتسم نزيه لأخيه محييا ، وقبل أن يفتح أحد فمه بالشكر كان

الدكتور نزيه قد اختفى في غرفة مكتبه المجاورة في حين برزت النقالة

البيضاء من الباب المفتوح يدفعها الممرض والمرضة بطول الممر وقد لهت

الأب على ينهاها والأم على يسراها وقد تحولتا إلى عيون ملهوفة على وجه

ابنهما الشاحب العائد إلى الوعي بابتسامة وجلى باهتة تحولت إلى خجل

دامع عندما لمح ثريا تسير وراء أمه !

دخل الجميع مصعدا فسيحا توقف بهم عند الطابق الثاني حيث أسرعوا

عبر الممر الأبيض المشع بروائح المطهرات ، ثم انحنوا يسارا حيث غرفة

مفتوحة ذات سرير واحد توقفت النقالة بجذائه . أسرع بسيم ورشيد

بمساعدة الممرض والمرضة في حمله إلى السرير ثم خرجا بالنقالة

صامتين . جلس بسيم على يسار ابنه والأم على يمينه ، وكل من ثريا

ورشيد عند طرفي النهاية .

انحن نوال تقبل ابنها وقد تشبثت بيده لكن زوجها قال لها في حسم

صهرته التجربة ولم تعهده ثريا فيه من قبل :

— أكد الدكتور على أنه في حاجة إلى راحة تامة .. فلا داعى

لإجهاده !

ترددت نظراتها في خجل لم تشهده ثريا في سلوكها المعتاد :

— لا أستطيع أن أمنع نفسي !! كل ما أفكر في أنه كان من الممكن

أن يضيع منا في شربة ماء .. أشعر بقلبي ممزقا بسكاكين !  
عاد رشيد إلى ابتسامته العذبة الرقيقة :

— لا داعي للمبالغة ! لم يصل الأمر إلى هذا الحد !  
ترددت نظرات حازم الواهنة بينهم وإن تركزت في دوراتها على ثريا  
تتمتج بابتسامه لم تخف عن رشيد الذي سأل حازما :  
— أريد أن تجيب عن سؤالي بإيماءة القبول أو الرفض ! كيف حالك  
الآن ؟!

هز حازم رأسه موافقا ومتكلما أيضا:  
— الحمد لله !!

ربت بسيم على يد ابنه وقبلها . ساد الصمت مع النظرات المتبادلة  
والابتسامات الوادعة . نظر رشيد إلى ساعته فبادره بسيم بقوله :

— تفضلوا أنتم !! كفاكم كل هذه المشقة !  
تخلص رشيد من حرجه المفاجيء بتلقائية محبة :  
— ليس قبل أن ينام حازم ونظمتن عليه تماما !  
تدفقت كلمات الأم وهي تمسح بقايا دموعها :  
— تفضلوا مصحوبين بالسلامة !! سنظل ساهرين إلى جواره طوال  
الليل !!

— على كل حال .. الدكتور نزيه سهران الليلة .. وسيمر عليه أكثر  
من مرة !!

أحاطه بسيم بنظرات إجلال :

— لا حرمنا الله منك ومن الدكتور ثريا !  
ابتسمت ثريا في حين نهض رشيد قائلا :

— سنأتى فى الصبح الباكر للاطمئنان على حازم !

ابتسم حازم لهما وهما يودعان أبويه وينطلقان عبر المروعة على درجات السلم إلى الطابق الأول . أطل رشيد برأسه داخل غرفة مكتب أخيه فوجدها خالية . أمسك بيد ثريا فى سعادة حتى ركبا العربة . هبت نسمة هواء عليلة داعبت خصلاتها الذهبية فى محاولة لتجفيف بعض حبات العرق تحتها . بمجرد خروج العربة من البوابة الخارجية الكبيرة تساءلت ثريا فيما يشبه الشرود :

— ألم أقل لك يا رشيد أنتى شككت فى شعور حازم تجاهى ليلة دق جرس الباب بعد رحيلك ليسألتى فى خبث الأطفال عما إذا كان أخى قد عاد من أمريكا ويعبر عن رغبته فى السلام عليه والترحيب به لشدة شوقه إليه ؟!

— لم أهتم للملاحظتك تلك فى ذلك الوقت ؟! كنت أظن أنه مجرد شعور مراهق تجاه أستاذه الجميلة الساحرة .. لكننى لم أتصور أبداً أنه يعانى هذا الكم المرعب من الانطواء والضياع !!

— أسمعت أمه وهى تدعو الأسياد لنوال رضاهم وسماحهم ؟!

— من الواضح أنها مدمنة زار ؟!

— وأوشك إدمانها أن يدمر البيت كله بمن فيه !!

— لقد حملنى نزيه مسئولية علاج حازم نفسياً !! فلو تكررت الظروف فمن الممكن أن يعيد المحاولة التى قد تكون قاتلة فى المرة القادمة !

— لاشك أن الصدمة المروعة التى مر بها أبوه وأمه هذه الليلة من شأنها أن تغير من سلوكهما بعد أن واجها عملياً احتمال فقدته إلى الأبد !

— وعليك أنت أيضا أن تقنعيه بأن الصداقة الواعية الناضجة أروع  
ألف مرة من حب غير متكافئ ومن طرف واحد !  
ابتسمت ثريا فعاد البريق الأخضر الداكن إلى عينيها وهي تداعب  
وجنة رشيد بأناملها الرقيقة :

— هل نجح حازم في إثارة غيرتك ؟  
انطلقت ضحكته المجلجلة المحببة إلى قلبها مع إشارة المرور الخضراء :  
— إلى حد ما .. ومع ذلك فأنا أتمس له العذر .. إذ كيف لمراهق  
مثله أن يمنع نفسه من الوقوع في غرامك .. في حين أنا الذي أعتبر نفسي  
حكيمًا متزنًا نجح في مقاومة كل إغراءات العيون الزرقاء والخصلات  
الذهبية والبشرة الوردية لفاتنات إنجلترا .. لم أستطع أن أقاوم سحرك !  
كان الله في عونك فعلا !!

استأنف ضحكته التي تجاوزت معها ثريا في سعادة دافقة :  
— يبدو أن الدكتوراه التي حصلت عليها لم تكن في علم النفس بل  
كانت في فن الغزل !!

— إنه فن تعلمته على يديك !!  
وتوالت الضحكات المرحة كاسحة أمامها بقايا التوتر الذي تربع على  
قلبيهما منذ استغاثة بسم بهما !

تسللت خيوط الفجر من خصاص نافذة الغرفة البيضاء . كانت نوال  
 قد غفت قليلا في حين ظل بسيم يقظا طوال الليل برغم إجهاده الجسدى  
 والنفسى . فتحت عينيها متثابرة وهى تنظر إلى ساعة يدها الذهبية  
 الدقيقة التى أعلنت اقترابها من الساعة . كان حازم مستغرقا فى نوم  
 هادئ وإن انتابت جفنيه بعض الحركات العصبية الخفيفة فى متابعتة لحلم  
 ما . أما الحمرة فقد أخذت كل مأخذ من عيني بسيم اللتين غرقتا وسط  
 دوامات من الهالات السوداء . قال بصوت هامس لا يخلو من ارتعاشة :  
 — الحمد لله .. منذ مرور الدكتور نزيه عليه فى الثالثة لم يعكر صفو  
 منامه شىء !

تهدت بدورها وكأنها تزيج ثقلا من الرصاص فوق قلبها :  
 — الحمد لله .. مرت المحنة بسلام ! أتمنى ألا يرينا الله مثلها !!  
 نظر إليها بعينين ذابلتين :

— لا يشعر الإنسان بنعم الله عليه طالما كانت فى حوزته !  
 أدركت ما يرمى إليه فأبت إلا أن تعترف بجميلهم وفضلهم عليها :  
 — لا ينكر الجميل إلا ابن الحرام ! وقد أكدت لى هذه المحنة أننا لم  
 نفقد رضاهم وسمحهم برغم تبرمنا وعقوقنا وجحودنا !  
 نهض بسيم ليجلس على المقعد المجاور للفراش والمواجه لها . امتزج  
 ( الكودية )

الذبول والحمرة في عينيه بروح التحدى والكبرياء التي تصاعدت مع  
المحنة .:

— كنت أظن أن المحنة ستعيد إليك رشذك ووعيك .. لكن للأسف  
يبدو أنها ضاعفت من رسوخ معتقداتك إياها !!

— نذرت لهم حفلا كبيرا إذا اجتاز حازم المحنة حتى يتم الرضا  
والسماح ! ولا أستطيع الرجوع في نذري .. فليس لي سوى ابن  
واحد !

علا صوته قليلا وإن لم يخل من الارتعاشة :  
— حازم اجتاز المحنة بفضل الله الذي شخص لنا الدكتور رشيد في  
اللحظة المناسبة !

عاد الإصرار القديم إلى نبراتها :  
— النذر ليس كلام عيال حتى يقال أمس ويسحب اليوم !  
أشاح بوجهه في سأم وضيق مكبوتين :  
— على كل حال .. ليس هذا وقت الحديث في هذا الموضوع  
السخيف المعاد الممل .. لكن بمجرد شفاء حازم بإذن الله سأحسمه حتى  
لو حرمتك منه !

لم يقع التهديد من نفسها الموقع الذي أراده ، بل نهضت بنفس  
الإصرار في حين فتح حازم عينيه مبتسما متسائلا في صوت واهن  
خافت :

— إلى أين يا ماما ؟!  
— مهمة قصيرة أعود بعدها إليك فوراً !  
— لا تتأخري !



انحنى عليه تقبله :

— لن أتأخر !

خرجت والحق بكاد يقتل بسىما . تظن نفسها فى حمىة الأسياد  
ولذلك لا تبعاً بتهديدات الآخريين حتى لو كانت موجهة ضد مستقبلها  
بل وحياتها نفسها !

لاحظ حازم شرود أبيه فداعبه :

— صباح الخير يا بابا !

— صباح الفل يا حبيبي !

نهض حازم جالسا فأسرع أبوه بوضع وسادة وراء ظهره :

— تسببت فى كل هذه المتاعب والآلام لكم !

— لا تقل هذا يا حبيبي .. فحياتنا لا قيمة لها بدونك !

ربت حازم على يد أبيه الذى عاد ليجلس إلى جواره على الفراش

ويواصل حديثه المتدفق بالحنان والرقة :

— ولو أننى أريد أن أعاتبك منتهزا فرصة خلو الغرفة ومحاو لا إزالة

كل الحواجز بيننا .. ومع ذلك لا أزال مترددا خائفا !

أشاح بوجهه تجاه نور الصباح الذى اجتاحت النافذة :

— عندك حق يا بابا ! فما ضرتنى سوى هذه الحواجز !

ارتاح الأب للإجابة التى لم يتوقعها :

— إذا كان الدكتور نزيه قد شخص الحالة بأنها تلبك معوى حاد ..

مهذا من كرم أخلاقه .. وإكراما لخاطر أخيه !! حتى لا ندخل فى

إجراءات واستجوابات بوليسية !! ولذلك أريدك أن تصارحنى بكل

الدوافع الكامنة وراء ما جرى لك !! فأنا أبوك وأنت ابنى !! أليس

كذلك ١٩

طفت حمرة باهتة على وجنتيه الشاحبتين في بحثه عن مدخل للرد ،  
لكنه تردد فما كان من الأب إلا أن أردف :

— إذا كنت مجهدا .. أو حتى رافضا للإجابة .. فلن أضغط  
عليك !

أزاح حازم الغطاء الأبيض الخفيف قليلا عن ساقيه فاكشف أنه لا  
يزال يرتدى قميصه وبنطلونه . ابتسم الأب محاولا تغيير الموضوع :

— أعتقد أن ماما ذهبت إلى البيت لإحضار بيجامة وغيار داخلي  
لك !

جمع حازم قواه وقرر اقتحام الموضوع برمته :

— لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون أمل .. حتى لو كان هذا  
الأمَل وهما كاذبا !!

— إنك شاب في مقتبل العمر والمستقبل مفتوح أمامك على  
مصراعيه .. جمعت بين حب الناس لك والتفوق في دراستك .. فأين  
ذلك الوهم الكاذب الذى ضاع منك فتركت حياتك كى تضيع معه ١٩  
أصر حازم على عدم التقاء العيون :

— أنت أدرى يا بابا بأحوال أسرتنا التى لا تسر حبيبا أو عدوا !  
— هذه الأحوال ليست طارئة علينا .. فما الذى استجد كى تفعل  
بنفسك ما فعلت ١٩

عاد حازم إلى ترده فأردف أبوه قائلا :

— سأوفر عليك مشقة الإجابة .. إذ يبدو .. وأرجو أن أكون  
مخطئا .. أنك صدمت بخطبة ثريا لرشيد !! فلم يكن تعلقك بها خافيا

على أبيك !!

رأى حازم أباه في صورة جديدة ، صورة تمنى أن يراه فيها منذ زمن بعيد ، صورة الأب بشخصيته القوية التي تجمع بين الحزم والحنان ، بين القدرة على المواجهة والمصارحة ، والقدرة على الاحتواء والاحتضان في الوقت نفسه . وجد حازم نفسه ينطق بكلمات لم يفكر فيها ولم يستعد لها :

— لست مخطئا أبداً يا بابا !! كان تعلقى بها تعلق الغريق بالقشة ! كنت مدركاً تماماً أنني لن أتزوجها ! يكفي فارق السن بينى وبينها ! كما أنها كانت تعاملنى دائماً كأخيها الأصغر ! لكن حنانها الدافق الساحر أصابنى بالعمى لدرجة أنني لم أتصور وجود من يشاركنى فيها .. وذلك برغم معرفتى بكل الشباب الذين تقدموا لخطبتها .. فلم تكن تخفى عنى شيئاً ! إلى أن فوجئت بالدكتور رشيد معها دون أية مقدمات لامتناع الصدمة !

تدفقت يتابع المياه الصافية الباردة في خلجات بسم فمد ساقيه في استرخاء :

— والحمد لله أن الذى تسبب في صدمتك .. كان هو نفسه الذى أنقذك منها !

— لم أعرف أنه بهذا النضج والرقّة .. صحيح أن الطيور على أشكالها تقع !؟ لكن هل تظن يا بابا أنه شك في شعورى تجاه ثريا !؟

— لم ألاحظ شيئاً عليه .. لكن في اعتقادي أن لماحيتة من الحدة بحيث تلتقط الأفكار وهى طائفة في الجو !

— لكن لا تنس يا بابا أن خطبة ثريا لم تكن السبب الوحيد فيما

جرى لى ١٤

— أعرف ما تعنيه تماما يا حازم ! وأعدك بأننى لن أترك الأمور تجرى فى أعتها من الآن فصاعدا !

لو كان هذا التطور الذى طرأ على أبيه نتيجة لمحاولته الانتحار ، فإنه غير نادم عليها ، فقد شعر أنه استعاده بعد غياب طويل :

— أرجو أن تتفق ماما معك فى هذا الرأى !

ومض الحسم فى عينيه الخائيتين وهو يمسخ بمنديله بعض قطرات من العرق تناثرت على صلعته :

— اتفاتها أو عدم اتفاتها لن يغير من الأمر شيئا !

خشى حازم أن يكون فى حلم أو غيبوبة حتى تتلقى أذناه مثل هذه الكلمات ، أو أن أباه يقولها منتهزا فرصة غياب أمه ، ومع ذلك سعد بسماعها منه . فقد كان وقع كلماته ينبىء بأن تغييرا ما قد وقع ، تماما مثل التغيير الذى يسرى داخله منذ عودته إلى الوعى . كانت روحه محمومة عندما تناول الأقراص ، لكن مع سريان مفعولها وإحساسه بالهبوط والنبض السريع فكر فى أن يصرخ طالبا النجدة ، لكن مع عودة أمه من الخارج وتساعد الشجار التقليدى بينها وبين أبيه ، فقد الرغبة فى الصراخ وترك نفسه للغيبوبة التى رأى فيها وجوها بيضاء شاحبة وأخرى سوداء معتمة تتجمع حوله وكأنها تعرفه حق المعرفة . ظلت عيونها تنفرس فيه فى حين كان يغوص فى بحور العرق التى استسلم لها تماما وغاب بين أمواجه الصامتة الساكنة . شعر بضوء يسطع فى عينيه ثم صرخات تبين فيها صوت أبيه وأمّه ؛ تلاشت الوجوه البيضاء الشاحبة والسوداء المعتمة عندما جاء من جذبه للسير على ساقين متهاويتين إلى

سيارة انطلقت ، وأصوات غامضة ، وآلام شديدة في أمعائه التي  
تفجرت بنافورة لم تتوقف إلا عندما وجد نفسه في سرير المستشفى !  
— فيم شردت !؟

استيقظ حازم من تأملاته على تساؤل أبيه الذي أضاف :

— لكنني لا أريد أن تجهد نفسك في الثرثرة !

— الحمد لله .. فإنني أشعر بالحياة تسرى في عروقي مرة أخرى !

ربت بسم على يد ابنه في حين سمعا أصواتا خارج الغرفة دخلت على  
أثرها ثريا ورشيد والبشر في أعطافهما . كانت ثريا تحمل باقة من الورود  
الحمراء والبيضاء وضعتها في زهرية فارغة على مائدة بيضاء مستديرة في  
منتصف الغرفة ، في حين وضع رشيد علبة شيكولاته على رف قريب من  
حازم الذي تابعهما في سعادة غامرة مع كلمات الأب :

— لقد غمرتمونا بأفضالكم التي لا نعرف كيف نردها !!

جلس رشيد على مقعد مقابل في حين قبعت ثريا على نهاية الفراش  
بينظلوها الچينز وبلوزتها الصفراء وخصلاتها الذهبية التي حبستها داخل  
شريط كحلي . مد رشيد ساقه في بنظلون چينز مماثل :

— كيف حال عريسنا اليوم !؟

ابتسم حازم في سعادة غامرة :

— الحمد لله .. فلولاك يا دكتور رشيد لكنت في خير كان !

وضعت ثريا ساقا على ساق وخضرة عينها تسطع مع الشمس التي  
تقاوم خصائص النافذة :

— لم نسمع أن التلبك المعوى مهما كان حادا يمكن أن يحول الإنسان

إلى خير كان أو اسم إن !!

التزم الأب الصمت في سعادة في حين أردف رشيد قائلاً :  
— مررنا الآن على الدكتور نزيه فقص علينا قصة العجوز الذى  
يشغل الغرفة المجاورة .. وهى قصة طريفة برغم النهاية المأسوية التى كان  
يمكن للعجوز أن يصل إليها !

صمت رشيد فداعبه بسيم :

— شوقتنا يا دكتور رشيد ثم تركتنا على نار !

ابتسم رشيد دون أن يرفع عينيه عن وجه حازم :

— هذا العجوز يناهز السبعين من عمره ومتزوج من شابة لم تتعد  
الثلاثين .. ولكى يجارها ويؤكد لها فحولته المتجددة أقبل على تعاطى  
الأقراص المقوية بجنون حتى كاد أن يقضى على نفسه تماماً ! فاضطرت  
إلى نقله إلى هنا بنفس الطريقة التى جئت بها يا حازم !

امتزج الحرج بالابتسام على وجه حازم الذى لم يغب عن ذكائه ما  
بقصده الدكتور رشيد . بحث عن مدخل مناسب للكلام فلم يجد .  
أنقذه أبوه من الحرج :

— هذه الدنيا مليئة بالألغاز يا دكتور رشيد .. عجوز متهالك لا  
يزال يتشبهت بالدنيا التى زهد فيها شاب لا يزال فى مقتبل العمر !  
حاول حازم أن يتخلص من حرجه :

— لكن النتيجة كانت واحدة فى الحالتين !

تدخلت ثريا بحزم خبره حازم من قبل أكثر من مرة :

— أكبر غلطة يمكن أن يرتكبها الإنسان فى حق نفسه أن يعجز عن

فهم من يتعامل معهم أو يحاول أن يفهمهم على هواه !

سعد الأب لهذه الملاحظة الحادة ، وندم على اتهامه لثريا بأنها السبب

في تعلق ابنه بها ، وحمد الله على أنه لم يصرح بهذا الاتهام أمامها ، فهي فتاة رائعة يندر أن يجد مثيلا لها ، ومعرفتها كنز يجب أن يحافظ عليه بأى ثمن . أما رشيد فقال :

— الصداقة الناضجة الواعية أبقي وأروع من حب غير متكافئ أو حب من طرف واحد !

قرر حازم أخيرا أن يكون رجلا على مستوى الموقف :  
— كل البشر معرضون لارتكاب الأخطاء .. المهم أن يستفيدوا من أخطائهم !

نهضت ثريا وفتحت خصاص النافذة فافترش النور أركان الغرفة :  
— الخطأ خير معلم للإنسان الذي لا يرتكبه مرة أخرى !

لم يستطع بسيم أن يمنع نفسه من التدخل في هذا الحوار المبهر :  
— أروع شيء في الوجود أن ينطق الشباب بالحكمة في سن مبكرة .. فأنا مثلا لم أستفد من أخطائي إلا منذ أربع وعشرين ساعة !!  
ظن رشيد وثرثيا وحازم أنه يمزح لكنهم ذهبوا عندما رأوا ملامح الجدية تقبع متجسدة على وجهه . استأنف كلامه بمجدية أكثر :

— أحيانا يظن الإنسان أن حرصه على الحياة يدفعه إلى كثير من التنازلات .. لكنه يدرك بعد ذلك أن حرصه كان تفریطا حقيقيا فيها .. مثله في ذلك مثل جارنا العجوز !

عادت ثريا إلى الجلوس على حافة الفراش :  
— حكى لي حازم كثيرا عما عانته حضرتك من إدمان طنط نوال للزار الذي أوشك أن يضيع الورشة كلها !  
ارتاح بسيم لهذا التباسط :

— وكان على وشك أن يضيع ابني الوحيد أيضا !!  
— يبدو أن حضرتك نجحت أخيرا في وضع يدك على بيت الداء؟!  
— وإن كنت قد تميت الوصول إلى هذه النتيجة منذ عشر سنوات  
مضت على الأقل !!

علق رشيد على كلامه بابتسامة حانية :  
— الندم لا فائدة منه .. الحمد لله على الوصول إلى النتيجة المرجوة  
قبل فوات الأوان تماما !

قفز تساؤل من عيني بسيم إلى وجه ثريا المشرق :  
— لكن اسمحي لي يا دكتورة ثريا أن أسألك عن السر في حضورك  
حفلات الزار برغم علمك وثقافتك الواسعة؟!  
تبادلت ثريا مع رشيد نظرات لم تحف على حازم وأبيه ، لكن رشيدا  
لم يرد سوى بابتسامته ! فأجابت ثريا في تلقائية محببة :  
— مجرد حب استطلاع !

— لكن هل يصل حب الاستطلاع إلى درجة طلب الصفح من  
الكودية حتى تسمع لك بحضور الحفلات مرة أخرى بعد ما صدر عن  
السيدة والدتك في المرة السابقة؟! وهو ما ضاعف من إيمان الحاضرات  
بسر كودية البائع !  
تأكد حازم أن أباه تغير تماما ! حتى ثريا احتارت في الرد عليه !  
أردف قائلا :

— قد تذهلين عندما تعلمين أن زوجتي قد ذهبت الآن للاتفاق مع  
الكودية على إقامة حفل نذرت له لنجاة حازم !! وان لم تصرح بذلك !  
نكنسى أفهمها مثل راحة يدي ! ولذلك قررت أن أضع حدا لكل هذا



العبث والضياع بمجرد خروج حازم بسلامة الله !  
أيقن حازم أن أباه أصبح قادرا على تنفيذ ما يقول . لكنه لم يفتح فمه  
بكلمة إذ أن الأمور لا يمكن أن تصل إلى أسوأ ما وصلت إليه بالفعل .  
تراجع الصمت أمام كلمات ثريا الهادئة :

— أرجو ألا تتخذ أى إجراء قبل القضاء على رأس الحية !

ذهل بسم لنظرتها الثابتة :

— كيف يمكن القضاء عليها والقانون نفسه لا يحظر نشاطها ؟!  
— العلم قادر على تعرية حقيقة من عجز القانون عن فضحهم

وإقافهم عند حدهم !

نكس بسم عينيه فى استسلام واضح :

— منذ متى كان سلاح العلم أقوى من سلاح القانون ؟!

لم تصمت ثريا بل زادت إصرارا أثار إعجاب حازم القديم بها :

— ذلك لأننا لم نستخدم سلاح العلم حتى الآن !

أضاف رشيد مستمتعا بالمناظرة الفكرية :

— عندما يتشتر نور العلم والمعرفة والثقافة ليضيء النفوس من

الداخل فإن القانون نفسه سوف ينتقل من منصة المحاكم ليتربع على عرش

القلوب والعقول .. فالقانون ليس مجرد نصوص على الورق ولكنه فى

حقيقته نبض فى عروق المتحضرين من البشر !

بدت بوادر التحفز على حازم منذ مدة فنطق أخيرا :

— هذه أفكار مبهرة .. لكن كيف يمكن إخراجها إلى حيز الوجود

والجهل يكاد يفرقنا تماما فى بحاره العميقة المظلمة ؟!

ركزت ثريا وميض عينها الأخضر عليه :

— لو قال كل واحد فينا مثل هذا الكلام لظللنا على حالنا أو صرنا إلى أسوأ !

أكمل رشيد كلماتها وأفكارها :

— فلنبداً بأنفسنا .. لعلنا نضرب المثل للآخرين !

شعر بسيم أن هذا الكلام لا يصدر عن فراغ أو مجرد الثرثرة :

— هل هناك خطة محددة يا دكتور رشيد للشروع في هذا فعلاً ؟!

— لم نصل بعد أنا وثرى إلى مثل هذه الخطة .. وإن كنت أعتقد أن

خير وسيلة للتغلب على الخصم هي بفتح ثغرة في حصنه حتى يسهل ضربه من الداخل !

ومضت عينا بسيم بيريق أخاذ لأول مرة :

— لي عميل داخل الحصن يتمنى أن ينهار على رأس أصحابه !

ابتسم ثلاثتهم في ذهول ظنوا منهم أنه يداعبهم لعدم تصديقه ما يقال ،

لكن رشيدا واصل حديثه :

— إننى لا أمزح !! أقصد أنه لا بد من معرفة خبايا الخصم حتى

نصيبه في مقتل !؟

أجاب بسيم بنفس الجدية :

— وأنا أيضا لا أمزح ! فقد جاءتني المنشدة بنفسج وعبرت لي عن

حقدتها الدفين القديم على أطراف ورغبتها المحرقة في الانتقام منها ! وهى

على استعداد لعمل أى شىء في هذا السبيل !

قالت ثرى فيما يشبه التأمل والشروود :

— لاحظت هذا على نظراتها في الحفل الأخير !

لكن رشيدا تساءل في حذر :

— ألا يحتمل أن تكون دسيمة عليك؟! —

هز بسيم رأسه رافضا الاحتمال :

— لدى ما يؤكد صدقها .. وعلى كل حال لا بد من توخى الحذر  
بحيث نأخذ منها ما نريده ولا نعطيها ما يحتمل أن تكون قد سعت إلى  
تحقيقه من أهداف !

استمر رشيد في تساؤله المشبع بالإثارة هذه المرة :

— حبذا لو تم لقاء سرى بيننا وبينها !

— يمكننى هذا .. لكن ما العمل إذا فشلت مساعينا؟! إن استمرار

حياقي على هذا المنوال أصبح أمرا مستحيلا !

شعرت ثريا أن التساؤل الحرج موجه إليها :

— في هذه الحالة .. لحضرتك الحق كل الحق في اتخاذ ما تراه من

قرارات !! فالإنسان يعيش حياته مرة واحدة !

أضاف رشيد بثقة فائقة بالنفس :

— أنا شخصا متفائل .. فتاريخ البشرية يؤكد انتصار العلم على

الجهل في كل المعارك التي خاضها ضده .. وإذا بدا الجهل سيدا سائدا في

عصر من العصور فهذا استثناء من القاعدة لا يلبث أن يزول ! إن

جحافل الظلام مهما تكاثفت وتعاضمت فإنها لا تستطيع أن تصدى وأن

تنقلب على ضوء شمعة صغيرة !

استرخى بسيم غير شاعر بإجهاد الساعات الماضية ومحتها :

— إنكم تمنحوني من الأمل المشرق القوى ما افتقدته منذ عشرين

عاما !

نظر حازم إلى أبيه في سعادة غامرة ، وهو يشعر بشهينه تفتح للطعام

والحياة كلها ! ضغط على يده في حنان غامر :  
— وأنا؟! أليس لى دور فى هذه المعركة التاريخية؟!  
ضحكوا بكل صفاء القلب . أردفت ثريا ببقايا الابتسامة على وجهها  
المشع :

— إذا تماثلت للشفاء بسرعة .. فسنجندك فوراً !  
ألقي حازم الفراش الخفيف بعيداً عن ساقه فى عبث طفولى :  
— أشعر الآن كما لو كنت قد شفيت من أمراض كثيرة وفى إمكانى  
حمل السلاح فوراً !

امتلأت الغرفة الصغيرة بالضحكات الصافية مع دخول المريضة  
الياسمة حاملة بصينية عليها إفطار خفيف ، وملقبة بتحية الصباح التى رد  
الجميع بأحسن منها فى حين علق رشيد ضاحكاً :

— وما هى الذخيرة قد وصلت فى ميعادها !  
شاركتم المريضة الرقيقة الجميلة الضحكات التى امتزجت بنور  
الصباح الذى غمر الغرفة ونسماته التى طاردت هواء الليلة الماضية !

كان حبل النظرات المتبادلة ممدودا بين ثريا وبنفسج التي انتفضت على صوت ألطاف وهي تأمرها باستئناف الإنشاد . عادت الدقات إلى عنفوانها مع نفس الأناشيد التي سمعتها الحاضرات من قبل . وماجت الدوامة بالحاضرات بين قطرات العرق ، وتمائل الأجساد ، وإيقاع الصنوج ، ودقات الدفوف ، وتكاثف البخور ، واهتزاز الشموع ، ونواح الناي ، وصوت بنفسج المتدفق الهادر بشمع الليالي ، وسيد العيلة ، وسلطان الجان ، واللولى والمرجان ، ورئيسة الديوان ، والفيل والريحان ، وحملة العيان ، والوعد والمكتوب ، وحبل الشقا الممدود ، والقلم الفضة والحبر الزعفران ، والسلطان العجبان وأخته أم الغلام !

أخذت الأسطى ألطاف نوال من يدها حول الكرسي المنصوب تتجلسها على مقعد أمامه وسط المجلس ، في حين جلست الحاضرات على تسجادة الكبيرة المحيطة بالمائدة . لمحت ألطاف وميضا غريبا في عيني ثريا وهي قابعة في ركنها على السجادة . لم تسترح لها بل إن شيئا غامضا داخلها أنها على سماحها لها بالحضور ، ولذلك نوت على سحقها إذا بدر منها أى شيء ، فلن تكون أقوى من أمها . بل وقررت ألا تغيب عن عينيها أبداً ، ولذلك تجاهلت فقرة ذبح الديك والدجاج بعض الوقت حتى تقرأ ما يدور داخل ثريا التي لاحظت بدورها تركيز عينيها عليها ، بكل اتساعهما وعمقهما وسوادهما ، فأرخت نظراتها لتتابع نقوش

## السجادة الفاخرة !

جلست أطفاف على الكرسي المجاور لنوال ، وبنفسج كلها دهشة من هذه التغيرات المفاجئة في البرنامج والطقوس ، وإن كان معظم الحاضرات لم يلحظن شيئا غير عادى بعد وقوعهن تحت تأثير البخور والإنشاد والدقات المحمومة مع دورانهن وتمايلهن . كذلك كانت الست عدالات القابعة إلى جوار ثريا تنظر إلى نوال نظرات امتزج فيها الحقد بالضيق بل والاحتقار ، في حين كانت النشوة تومض في عيني نوال !

انتظمت بنفسج والجوقة حول أطفاف ونوال مع الحاضرات على السجادة . دار الغلمان السود بالقهوة على الجميع في فترة راحة لم تزد على نصف ساعة بناء على أوامر الأسطى . بمجرد تناول القهوة شرعت بنفسج والجوقة في إعداد الدفوف والطبول ، وسرعان ما نهضت أطفاف ونوال وحوهما الجميع مع الدقات التي عادت بأعنف مما سبق مع الدوران والتمايل والإنشاد الذي ينادى ركوشة هامم :

— يا ركوشة هامم يا ركوشة .. يابنت يا وره يا دلوعة .. يام الملبس يا عروسة !

ثم تحولت دقة ركوشة هامم إلى دقة سلطان البحر :

— يا ساعى البحر يا سلطان يا سفينة البحر يا عوامة .. حلوين يا بنات البحرية .. حلوين وشعورهم مرخية .. حلوين يا بنات البحارة .. صاحوا وناحوا العوامة !

كانت بنفسج تغير الدقة طبقا لنظرة من عيني أطفاف وإشارة من يدها ، لكن بنفسج كانت مندهشة لهذا التلاعب بترتيب الطقوس . ومع ذلك استمرت في الطاعة العمياء حتى تصل إلى ما تريده أطفاف

فعلا :

— سليلة مرحبا يا غزال انبعي .. يا حلوة يا سليلة حلوة وجميلة .  
مرحبا يا غزال انبعي .. ودى داخلة الحمام والميه وردى ايه .. مرحبا يا  
غزال انبعي .. والمشط فضة سته عظيمة كده ليه !!

أحست بنفسج بالإجهاد ليس لأن سنبا لم تعد تسمح لها باحتمال  
الإنشاد المتواصل ، والدقات المحمومة ، والبخور الخائق ، واللف  
والدوران ، والتمايل في كل الاتجاهات ، ولكن لأنه من المفروض أن  
تصطحب أطفاف نوال إلى غرفة قريبة حيث تنام معها على السرير ، في  
حين يمر الضيوف بفترة راحة أو إغفاءة تستمر حتى الثانية صباحا حين  
تستيقظ أطفاف ونوال لبدء طقوس حفل الفجر ، لكن شيئا من هذا لم  
يحدث واستمرت بنفسج والجوقة في تغيير الدقات ، وأطفاف تراقب ثريا  
من طرف خفى وقد بدا عليها الإجهاد والدوار مثل معظم الحاضرات :  
— جندار من ورا الجندار .. من ورا وأبيه وأبيه على جيش يا أبو  
جندى سامح .. بقى يا شوار يا أبو ليلة يا مرحة عزموا الأسياد على  
ماما .. يا مرحة ديربوه يا أبو ليلة .. يا وزير ماما عاشقوك يا حكيم  
باشا .. يا وزير ماما ديربوه .. يا بيت الجلالة يا وزير ماما عاشقوك يا  
داخل العيادة يا وزير ماما !!

برغم إجهاد بنفسج ، بدأت تدرك معالم الخطة التي تحاول أطفاف  
تنفيذها . إن فراستها التي لا تخفى على أحد أوحى إليها بأن في الجو شيئا  
غامضا لا بد أن تدرك كنهه . ولن يتأق لها هذا إلا إذا أصابت الجميع  
بالدوار بل والإغماء والغيبوبة حتى تصبح سيدة الموقف بلا منازع .  
عندئذ يمكنها أن تضغط على الصدور لتبوح بمكنوناتها . كان الحاضر الذى

( الكودية )

أزعج بنفسج وجعل دقائقها على اللف مهتزة بعض الشيء ، أن تكرر ثريا غلطة أمها فتجعل من أطفاف ملكة الزار في مصر كلها ، خاصة وأن خطواتها في الحلقة قد أصبحت آلية تماما ، وخبا وميض عينيها الأخضر ، ونضح العرق تحت إبطيها على رداؤها الأبيض .

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا . أعلنت أطفاف بدء فترة الراحة وبدلا من اصطحاب نوال إلى الغرفة الجانبية للنوم عادت للجلوس معها على المقعدين المواجهين والتفت الجوقة حولهما في حين ركنت الحاضرات للراحة والاسترخاء والإغفاء . أما أطفاف فقد سلطت شظايا عينيها على ثريا في ركنها على السجادة . حاولت ثريا قدر إمكانها تفادي حممها وهي تقاوم الإغفاء الذي أوشك أن يمكس بتلابيها ، ولولا إرادتها الحديدية التي استمدتها من أعماق أعماقها لكانت الآن لعبة بين أصابع هذه الساحرة الجبارة !

سَاد الصمت الرهيب برغم أصوات الشهيق والزفير المنتظمة ، والشخير المتقطعة . انقشعت سحابات البخور الداكنة ، ومع ذلك لفت المكان في غلالة رمادية شفافة لم تساعد ثريا على تفادي نظرات أطفاف إلى عينيها وكأنها تسعى إلى تنويمها مغناطيسيا . لم ينقذها من هذا الحصار المغناطيسي سوى دقائق ساعة الحائط الفاخرة تعلن الثانية صباحا . فجأة صفقت الأسطى أطفاف ثم أمرت الغلمان السود بإحضار الكيش .

نهض الغلمان من دائرة الجوقة واختفوا في المطبخ ، وسرعان ما عادوا بكيش مزين بالزهور وبطست وملاءة بيضاء شدها الغلمان على شكل حيمة صغيرة دخلت تحتها أطفاف ونوال والكيش وسرعان ما ظهر



قصاب ضخم الجثة ثم اختفى تحت الملاءة . انطلق أنين الكبش الذبيح  
واهتزت الملاءة في عنف مع بقع الدماء التي تناثرت أسفلها كنافورة  
ساخنة ، وأصاب ثريا بهلع حاولت كتمانها بعد أن حاول الخروج من  
صدرها صارخا مع صيحات ألطاف : دستور يا أسياد .. الرضا  
والسماح يا أسيادى !

انقضت الملاءة عن كبش مخرج في دمائه داخل الطست ،  
والقصاب يغادر المكان بسكينه التي تومض تحت الدماء المتساقطة منها ،  
في حين عادت ألطاف ونوال الملطخة بالدماء إلى المائدة المستديرة حيث  
جعلتها ألطاف ترقع منكسة الرأس إلى الأرض ، وسهام الغيرة تنطلق  
بوميضها الشرس من عيني عدالات في جلستها إلى جوار ثريا التي  
استماتت في تمسكها بإرادتها الحديدية لإحساسها بأن اللحظة الفاصلة  
الحاسمة قد اقتربت بكل رهبتها !

انتظمت الحاضرات مرة أخرى حول ألطاف ونوال ، ودارت  
بنفسج والجوقة بإنشاد هادر ودقات مسعورة حول الراكعة :

— شيخ محضر .. يا شيخ محضر . اللي عليه عفريت يحضر !! شيخ

محضر .. يا شيخ محضر .. اللي عليه عفريت يحضر !!

وتكرر الإنشاد الهادر والدق المسعور مع تمايل الأجساد والظلال  
والشموع ، وإعياء ثريا البادى ، في حين برز غلام أسود يحمل لفافة  
ضخمة أخرج منها عباءة حمراء موشاة بالقصب ، وطربوشا مكللا  
باللؤلؤ ، وسيفا وخنجرا من فضة . لبست نوال العباءة الحمراء بمساعدة  
ألطاف التي وضعت الطربوش بمعرفتها على رأسها ، ثم قلدها السيف  
والخنجر ودارت حولها مع بنفسج بالدفوف ، والجوقة تدق وتنفخ :

— يالوا يالوا في الطابور عسكرى .. يالوا في الطابور والله يا راكب  
حصان والحرس قدامك من بره بره يا لابس بدلتك والحرس قابلتك من  
بره بره !! دنت يا وره العرنى سلامين .. خدوك بيادة .. يالوا يالوا  
والعوض على الله .. وسعوا السكة تماما .. خلوا العسكر تفوت يا وره  
بيه .. العب يا بيه يا وره ادلع يا بيه .. طربوش عزيزة لياوره لايق  
عليه .. ياقه ييانى .. لايقه عليه والخاتم مذهب لياوره: لايق عليه ..  
وساعة وكتينة لياوره اسم الله عليه .. قاعد على البورصة يا وره يشرب  
كافيه وفي إيده منشة وفارق الكاريه يابو الروايح ياوره خمسة عليه !!  
تمايلت نوال وسط الجمع العظيم ثم انتفضت صارخة :

— السلام عليكم !

سألته أطفاف والشرر يتطاير من سواد عينها :

— أهلا وسهلا .. تحت أمرك ! من أنت يا سيد !

أجابت نوال بصوت أجش كصوت الكهول !

— أنا .. كادو .. سلطان الجن الأحمر !

صمتت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال أطفاف :

— دستور !! ماذا تريد !؟

— كل طلباتي التي أمرت بها الأسطى أطفاف في الرؤيا !! وإلا

أخذت ابنها وحيدها بلا رجعة !؟

— دستور !! طلباتك كلها مجابة .. ذهب وفضة ونقود وذبايح !

هنا دق قلب ثريا في انتفاضات سريعة أوشكت أن تقفز به خارج

صدرها ، ومع ذلك تركت الدائرة لتواجه أطفاف ! حاولت عدالات

الإمساك بيدها وإعادتها إلى الطابور لكنها رفضت ذراعها بعيدا ومعها

الرعب والإعياء ! في لمح البصر التفتت أطفاف إلى ثريا التي صاحت في وجهها بصوت أعلى من الإنشاد والدقات الهادرة :

— كفاك يا جمالات دجلا واستنزافا لعرق الناس وكدهم !

في نفس اللحظة الرهيبة توقفت بنفسج عن الإنشاد والدقات ومعها الجوقة كلها . ساد سكون العاصفة بل الإعصار . تركت أطفاف نوال لتواجه ثريا واضعة ذراعها في وسطها ، والشظايا تنطلق من عينيها بأقصى اتساعهما :

— ماذا قلت ؟!

أعادت ثريا نفس الكلمات ولكن بثقة أكبر وإيقاع أعمق رده صمت السكون . هزت أطفاف حصرها مع حاجبها الأيمن :

— إذا كنت قد فقدت الوعي فسأسألك بشرط ألا أرى وجهك مرة أخرى ؟! أما إذا كنت في وعيك فسأترك لعناتهم تنصب على أم رأسك .. والجميع هنا شهدوا وعرفوا ما جرى لأملك يوم فقدت وعيها وأهانتهم !!

عشش الطير على رعوس الجميع فسرى الصمت ، ونحجرت العيون في مآقيا ، وازداد شحوب نوال التي توسلت بنظراتها لثريا حتى تتراجع ، وطفح التشفى على وجه الست عدالات بعد طول يأس وغيرة وإحباط ، أما التشفى في عيني بنفسج اللاهثة فكاد يصعق أطفاف التي لم تلتفت إليها بل واصلت تصعيد التحدى بعينيها المغناطيسيتين :

— لا زلت في انتظار ردك !! إنها فرصة أخيرة لك !

قاومت ثريا وميض عينيها حتى لا تصاب بالإغماء :

— لم أكن في كامل وعي في أية لحظة من لحظات حياتي مثلما أنا

الآن !!

— إذا .. فأنت تعترفين بجريمتك !؟

— الجريمة جريمتك .. الدجل والنصب والاحتيال على السذج من

الناس لسرقة عرقهم وكدهم دون أن تصل يد القانون إليك !!  
لم تصدق أطفاف ما تلقته أذناها من صواعق . امتزج العرق بالحمرة  
على بشرتها البيضاء فازدادت توهجا وسط شعرها الأسود الطويل ذى  
الشلالات اللامعة المتدفقة على كفتيها وظهريها :

— لن أرحم جنونك ! سأتركك للعنتهم ! فأنا وإن كنت خادمتهم  
فإننى فى حالتك لا أستطيع طلب سماحتهم ورضاهم !! بل إنك  
تستحقين سحق عظامك !

صرخت نوال فيما يشبه النحيب :

— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

واصلت ثريا زحفها وهى تكتشف ما بداخلها من قوة عارمة لم  
تشعر بها من قبل ، خاصة عندما تذكرت قول رشيد : إن دهاء العلم  
لا بد أن يكون أقوى من دهاء الجهل :

— لو كان شرك باتعا كما تدعين .. وقادرة على شفاء الأمراض  
وعلاج العقم مثلما خدعت آخر ضحية لك طلبت منك إقامة حفل حتى  
ترضى عنها الأسياد وتنجب طفلا لزوجها الذى أوشك أن يطلقها بعد  
زواج عقيم استمر أكثر من عشر سنوات .. إذا كنت قادرة فعلا على مثل  
هذه المعجزات .. فلماذا عجزت عن الإنجاب فى حين يتحرق زوجك  
كافور شوقا إلى طفل يملأ عليه حياته الفارغة !؟

كوميض البرق فى الليلة الظلماء ألقت أطفاف شحنة عينها الكهربية

على وجه بنفسج ، ثم قالت لثريا فى صوت كهزيم الرعد :  
— فليقطع لسانك بأكاذيبه السامة !

سعدت ثريا بنجاحها أخيرا فى ذلك الحصن الراسخ :  
— لن أهبط إلى مستواك فى السباب .. لكن إذا لم تكن هناك من  
تصدقنى من الحاضرات .. فعليها بالذهاب إلى عيادة الدكتور أحمد وليد  
فى ميدان باب اللوق لتعرف أن حضرتك زبونة دائمة ظلت تتردد عليه  
حوالى عشر سنوات لممارسة جميع أنواع العلاج ولم تفقد الأمل بعد فى  
الإنجاب !؟

من أى جحيم هبطت عليها هذه الملعونة !؟ حشدت كل قواها حتى  
تسحقها وتذروها مع البخور الآخذ فى التلاشى فى حين تحولت  
الحاضرات إلى تماثيل شمعية من ذهول وشروود وهلع :  
— ستكونين عبرة لمن يعتبر !

ابتسمت ثريا متسائلة فى سخرية مريرة :

— ألم تلحظى أن لعنة أسيادك لم تحل على بعد !؟

— لا تتعجلى مصيرك الأسود !

— أريد أن أكون عبرة لمن يعتبر !

لأول مرة يخونها صوتها الجمهورى ، وترتعش شفتها السفلى ، ويتناثر  
رذاذ خفيف من لعابها وهى تصيح :

— بحق كادوا سلطان الجن الأحمر .. وبحق الست الكبيرة .. وبحق

ياور بك .. وركوشة هاتم .. وأم الغلام .. وسلطان البحر وابنته

سفينة .. وبحق هذا الحفل الذى أقيم من أجلهم .. عليك لعنتهم !

توقع الجميع سقوط الصواعق ، وانفجار البراكين ، ووقوع

الزلازل ، وانطلاق الأعاصير ، لكن شيئا من كل هذا لم يحدث !  
اتسعت ابتسامة ثريا الساخرة وتحولت إلى ضحكة :

— اياك أن تقولى أن صبرهم هذه المرة طال أكثر من اللازم .. فلا  
وجود لهم إلا فى عقول السذج والجهلاء والمرضى بالأوهام !  
تراجعت أطفاف إلى الخلف وأمسكت بكتف نوال فى حين صاحت  
فى الجميع بعيون زائغة :

— لا تصدقوها .. إنها دسييسة من سلطان الجن الأزرق الذى يحارب  
سلطان الجن الأحمر !

دارت على الحاضرات تكرر هذه الكلمات فى استجداء مهين ، لكن  
معظمهن أشحن بوجوههن بعيدا عنها لأول مرة فى حين واصلت ثريا  
القضاء على المعازل الأخيرة المتهاوية :

— إننى دسييسة سلطان الجن الأخضر وأنت الصادقة !! ألا  
تلاحظين لون عيني ١٢

نطق لسان نوال دون أن تقصد :

— أكاد ألا أصدق عيني ١٣!

تلقت أطفاف كلمات نوال كالغريق يمسك بقشة :

— فعلا .. كلامها لا يصدق لأنها كاذبة وستلقى مصيرها !

تجاهلت ثريا أطفاف قائلة لنوال مباشرة :

— ما جرى قبل ذلك كان الدجل بعينه .. أما هذه اللحظة فهى

لحظة الصدق الكامل .. ولذلك فإن جمالات لم ولن تحتلها !

ولولت أطفاف صارخة فى حين تراجعت عدالات حتى اقتربت من

الباب :

— احرصى .. احرصى !!

تفوقت ثريا على نفسها فمارست معها لعبة العيون المغناطيسية وهى تقرب منها مهددة برفع ينها التى سقطت كما لو كانت قد أصيبت بالشلل ثم شهقت من حنجرتها شهقة ذبيحة طلبا للهواء فى رثيها ثم سقطت عند قدمى نوال ، والنظرات الذاهلة شدت بخيوط إلى سقوطها العظيم . نظرت ثريا إلى نوال :

— رشى على وجهها ماء الورد حتى تفيق .. فكس رشت على وجوهكن ماء الورد خوفا عليكم من أن تطول الغيبوبة أكثر من اللازم !  
والآن حانت الفرصة لترد إليها جمائلها وأفضالها !

أسرعت نوال بأخذ الزجاجاة من على الكرسي المنسوب ورشت منها على وجه أطف الملقاة كجثة هامدة ، فى حين تراجعت ثريا إلى الخلف . بدأ بعض الحاضرات القريات من باب الشقة فى فحه فى سكون رهيب والتسلل خارجه ، الواحدة بعد الأخرى ، وخلفهن عدالات ثم ثريا التى وقفت عند باب الشقة على قمة انتصارها :

— أعتقد أن الحفل انتهى .. فلتصبحن على خير !

واختفت ثريا فى حين ارتفع صوت محركات السيارات حاملة الحاضرات إلى بيوتهن . لم يبق من الحاضرات سوى نوال وبنفسج وأعضاء الجوقة . بعد رش زجاجة ماء الورد على وجهها حتى أغرقت شعرها وعنقها وأعلى صدرها ، أفادت أطف قليلا فأسرعت بنفسج لتغير ملابسها ومعها بعض أعضاء الجوقة ، فى حين استمر البعض الآخر حول الأسطى التى وضعت نوال رأسها فى حجرها . كانت أطف تفتح عينيها وتديرهما حولها لكنها سرعان ما تغلقهما كما لو كانت نروح تحت وطأة كابوس مريع ، فى حين ومض فى عيني نوال بريق لم تشهدهما من قبل ، مزيج من الرثاء والسخرية والتجمل من أيام الدجل ولياليه !

مع دقائق ساعة الحائط الضخمة الثالثة صباحا ، نهضت أطفاف جالسة وقد تفادت النظر إلى نوال . اجتاحتها وحشة السكون والعزلة والفراغ فهرعت إلى غرفة جانبية حيث ارتفع صوت نحيبها الذى لم يخطر ببال نوال فى لحظة من اللحظات أنها يمكن أن تسمعه ، فتوقفت عند عتبة الغرفة دون أن تجرؤ على الدخول . نظرت إلى ساعة الحائط مرة أخرى ثم إلى آلة التليفون القابعة فى أحد أركان القاعة ، فارتسم على وجهها شبح ابتسامة مشحونة بالارتياح والخجل والرضا والطمأنينة !

فجأة انطلقت أطفاف بملابس الخروج لا تلوى على شيء ، بل لم تنظر حتى إلى نوال ، وفى لحظة اختفت خارج الباب المفتوح . بعد لحظات تبعها أفراد الجوقة ، وكانت بنفسج آخر من غادر المكان وعيناها تقولان لنوال أشياء كثيرة ومثيرة لكنها غامضة !

أسرعت نوال برغم ترددتها الواضح ورفعت سماعة التليفون وأدارت القرص ببطء . انتظرت للحظات ثم أوشكت أن تعيد السماعة إلى مكانها لكنها عدلت بنفس السرعة المزوجة ببعض الدهول :

— أنا نوال .. ما الذى أبقاك مستيقظا حتى الآن ! كنت على وشك أن أغلق السماعة ؟! .... كنت محرجة لكننى رأيت أن البيت بدونكما لا معنى له ! .... وحازم أيضا مستيقظ ؟! عجبا .... إنها ليلة الأعاجيب !! سأنتظر كما على أحر من جمر !! مع السلامة !!

وضعت السماعة وهى تقلد أطفاف فى دقائقها للدف وتمايلها فى كل الاتجاهات ضاحكة من أعماق قلبها ضحكات صافية لم ترن فى أذنيها من قبل وهى تصيح فى سعادة غامرة :

— شيخ محضر .. يا شيخ محضر .. اللى عليه عفريت محضر !!



مرت الأيام والليالي باللطاف وكانت عجوز يجر قدمين من رصاص في زقاق موحل مظلم . في بداية الأمر قتلها الندم لسماحها لثريا بحضور حفلاتها بعد فعلة أمها ، فقد صورت لها ثقتها بنفسها التي بلغت حد الغرور أن انتصارها على أم ثريا جعل الجميع يدينون لها بالولاء الكامل والإيمان المطلق بسرها الباتع الذي لا يقهر لأنها استمدته من الأسياد . لذلك لم تنصت لحاستها الخفية التي أوحى إليها بالحذر من ثريا لعلها تدبر شيئا لتنتقم لأمها ، خاصة وأن حاستها هذه جعلتها تتساءل من قبل عن السر في حرص شابة متعلمة مستنيرة مثلها على حضور الحفلات التي تقتصر على السذج والجهلاء ومرضى الأوهام ١٢

لعن الله الغرور الذي طمس أصوات الحذر داخلها ! كانت تظن أن في إمكانها سحق خصومها في الوقت والمكان اللذين تحددهما بنفسها ! لكن حساباتها أخطأت مع هذه الملعونة الرقيقة ذات العينين الخضراوين ! كذلك أخطأت في معاملتها مع بنفسج التي كانت منشدة الأسطى ربحانة يوم لاذت بها بعد ليلة حفرت في ذاكرتها بحروف من حديد ونار برغم ظلامها الدامس ١٢ ثم دانت لها الأمور ففازت بالمكانة الأثيرة التي قضت بنفسج العمر سعيا للحصول عليها ، ذلك أن كافورا لم يستطع مقاومة جمالها وشبابها ! ومع ذلك استمرت بنفسج وهي تمضغ أحقادها وتجتر أحزائها بعد أن تقدمت في السن ولم يعد الطلب

ملحا عليها من كوديات أخريات . ومع ذلك واصلت محاولاتها المستميتة فطلبت منها تعيين ابنتها سوسن معها بعد أن علمتها كل أصول المهنة وأسرارها . لكن الابنة كانت جميلة ومغرية ولم تتعد العشرين ربيعا من عمرها ، في حين كان كافور في عنفوان شبابه ويتحرق شوقا لطفل ينجبه !! لم يكن من المستبعد أن بنفسج كانت تخطط لنفس اللعبة التي لعبتها هي من قبل مع الأسطى ربحانة وابنها كافور الذى لا يزال مالكا للقبلا ، وكل أرصدة أمه في البنك باسمه ! صحيح أنه مدلل ضعيف الشخصية بل وتافه ولا يملأ عينها ، لكن العقارات والأرصدة قوة لا يمكن تجاهلها ! بل هي كل شيء في أحيان كثيرة !

كان من الطبيعي أن ترفض تشغيل ابنتها معها ، لكن كان من الطبيعي أيضا أن تحذر بنفسج التي كانت على وشك الانفجار حقدا وحنقا وكمدا ! لكن غرورها اللعين صور لها قدرتها الفائقة على البطش بكل خصومها في لمح البصر ! ولم تتصور أن بنفسج يمكن أن تكتشف لعبتها في استمرار انتقامها من بسيم ، وهي التي ترددت على بيته عندما كان في سن الصبا ! وبالتالي يمكنها أن تطعنها بتعرية حقيقتها القديمة ، بسل وأسرارها الجديدة التي دفعتها للتجسس عليها حتى عرفتها كلها . وهذا ما اتضح لها أخيرا ، للأسف الشديد ، على لسان ثريا الذى قطر السم كله في أذنيها !

وإذا كانت الطاف قد انتقمت بطرد بنفسج أخيرا من خدمتها، إلا أنها لم تشف غليلها . كانت بنفسج على وشك الاعتزال ، كما أن نجم ابنتها سوسن بدأ يسطع مع كودية الدرب الأحمر ! لكن الخوف كل الخوف أن يكون بسيم قد فضح سرها القديم عند بنفسج التي يمكن أن تنقله سرا

كعادتها إلى كافور الذى قد يطلقها وتجد نفسها بلا مقر . صحيح أن لها أرصدة ضخمة فى البنك ، واشترت أرضا فى الروضة وشرعت فى بناء عمارة خاصة بها ، كما أن اسمها فى دنيا الزار أصبح له وزنه ، ولن يؤثر فيه كثيرا ما حدث أخيرا ، فالعلاقات بين زبائن الزار المختلفين شبه منعدمة ، ولم تعد حفلاتها قاصرة على حى أو اثنين ، بل إن الكثيرين لن يصدقوا ما وقع بالفعل ، لكن مع كل هذا لا تستطيع مقاومة رغبتها العارمة فى الانتقام من بسيم حتى النهاية ، خاصة وأن الاحتمال قائم فى إفشائه السر القديم لينفسج !

لكن ألا يخاف بسيم أن يصل السر القديم إلى أسماع زوجته وهى التى يعيش فى خيرها ؟! ومع ذلك لا تنسى أطفاف أن نوال اعترفت لها أن زوجها ينوى تطبيقها بعد أن أوشكت الورشة على الإفلاس ، وبعد أن أوشك ابنها على الموت ! ولذلك فهى لا تستبعد أن يفشى السر القديم على سبيل الانتقام من الإذلال الذى لقيه على يديها !

يكاد رأسها ينفجر برغم الحبوب المنومة والمهدئة التى اعتادت تناولها منذ ذلك الحفل المشثوم ! كل قرار تصل إليه تجد له ما يناقضه ويدحضه بنفس القوة ! فى صدرها شىء تجاه بسيم وأسرتة لا بد أن نجسم بطريقة أو بأخرى ! حاولت تجاهله واستئناف حياتها العادية لكنها لم تستطع ! جفا النوم مرقدتها وقضت الليالى بطولها مسهدة لا يؤنسها سوى شخير كافور المتكور إلى جوارها ! قوة قاهرة تدفعها برغم إرادتها للمعاودة الاتصال بهذا البيت ! قوة غامضة لا تدرك أسبابها بوضوح ولا تستطيع تبين النتائج التى يمكن أن تترتب على هذه الخطوة، ومع ذلك تقلقها ليل ونهار حتى أوشكت أن تصيب حياتها بالشلل !

لم تخفف نسيمات الخريف الوادعة من لوعتها ، وإن كانت قد خففت من قيظ الصيف الساخن الذى بدأ برحيل الأسطى ربحانة ! لم تعرف إذا كانت تعاني من الرغبة المحرقة فى الانتقام ، أم من اليأس والإحباط ، أو من الخوف من الجهول ، أو من دوران الدوائر وعودتها إلى ما كانت عليه قبل لجوئها إلى الأسطى ربحانة ، أو من مزيج من كل هذا !؟ كل ما كانت تشعر به تلك القوة الغامضة الجبارة التى تهبط كاهلها بأثقل مما تستطيع ! لم تتوقف هذه الخواطر إلا مع تسلل ضوء الصباح من خصاص النافذة ، وانطلاق صفير صندل يخترق النيل . استدارت لتحتضن كافورا الذى تطلب ليحتضنها بدوره . قررت البدء به فى حذر حتى تتأكد من الأرض التى تخطو عليها . هزته فى رفق فتلملم على صوتها :

— كافور !

أجاب دون أن يفتح عينيه :

— نعم !!

— يبدو أننى لن أتمكن من أن أنجب لك طفلا بعد كل هذه المدة !؟  
فتح عينيه فى دهشة غير واعية لما سمعه :

— ما هذا الذى تقولينه !؟

— سمعتك تقول فى منامك إنك ستطلقنى وستزوج بأخرى تستطيع

أن تحقق لك أمنيتك !!

حلق فى وجهها فى دهشة تحولت إلى ذهول :

— لكننى لم أكن أحلم بشيء حتى أتكلم فى منامى !!

— الحلم ليس شرطا .. لكن على أية حال .. فأنا لا أستطيع أن

أربطك لى إلى الأبد وأنت تموت شوقا لطفل !! على بركة الله .. فلتفعل

ما قلته في منامك إذا كان هذا رغبتك الحقيقية !!

انتفض جالسا وهي تتأمله بتمعن وحرص شديدتين :

— أنت تعلمين أنني لا أستطيع العيش بدونك !!

جلست إلى جواره لئحتضنه وتقبله في رأسه ووجنته :

— أريد أن أريح ضميري الذى يعذبني ليل نهار !!

أمسك بيدها ليقبلها في تقديس :

— يا حياتي .. أكنت ساهمة شاردة حزينة طوال الفترة الماضية

بسبب هذا الموضوع ١٩

— ليس هذا فحسب .. بل أصارحك بأننى طردت بنفسج مجرد

كلمة عابرة نطقتها في حقلك !!

نظرت في عينيه فلمحت بريق حب الاستطلاع :

— وماذا قالت ١٩!

اصطنعت الحزن والأسف :

— هذه الملعونة التى آوتها أمك طوال عمرها وأنا من بعدها .. تنجراً

على آخر الزمن وتلمح لى بالسعى لطلب الطلاق حتى أتزوج ممن أستطيع

أن أنجب منه ! لكننى صفعتها وطرقتها وأنا أصبح بأن زوجى سيد

الرجال !! والعيب فى أنا !!

صفت لتأمل ما يجرى على وجهه من تحولات :

— هل قالت بنفسج هذا الكلام ١٩

— للأسف الشديد !!

هز رأسه فى أسى شديد :

— اتق شر من أحسنت إليه !

سرى بعض من برد الراحة داخل صدرها الذى ظل مشتتلا منذ ذلك الحفل المشعوم . نهضت تاركة الفراش فى حيوية جديدة بعد أن قبلت يده قبله سريعة وهى تقول :

— على كل حال .. لن أفتح هذا الموضوع مرة أخرى !! كفى أن أعيش العمر كله خادمة لك !!

سالت عيناه بنظرات الوجد والعرفان بالجميل ، فى حين تركته بميصها الأبيض الشفاف إلى قاعة المدخل حيث رفعت سماعة التليفون وأدارت قرصه ثم انتظرت للحظات وصدرها يعلو ويهبط :

— أنا الأسطى أطفاف .. نعم .. صباح الخير يا فندم .... لا .. إنه موضوع شخصى لا يتعلق بالزارر .... لا أستطيع أن أفاتحك فيه فى التليفون .. لا بد أن أراك .... لن آخذ من وقتك أكثر من ربع ساعة .... وهو كذلك .. سأكون عندك بعد ساعة على أكثر تقدير .. وضعت أطفاف السماعة وقد عاد إلى وجهها جماله الوحشى المتدفق من عينها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير . استدارت لتجد كافورا واقفاً بالباب يتساءل :

— من هى هذه المرأة ذات الموضوع الغامض !؟

تداركت الأمر فى لحظات كالبرق :

— أبدأ .. إنها زبونة كانت قد سافرت دون أن تسدد ما عليها من ديون لى .. وعندما علمت بعودتها قررت مهاجمتها فى عقر دارها فوراً قبل أن تلوذ بالفرار مرة أخرى !

سعدت لنظراته التى التهمت جسدها المتأوج داخل قميصه الشفاف . أدركت أنها أهمته منذ ذلك الحفل المشعوم ، وهو لم يتعود أن

يفرض نفسه ، بل كثيرا ما ينتظر حتى تمنحه ما يريد . ويرغم ذلك فقد نجحت في ربطه بعجلتها ، فهي عندما تمنحه تغرقه في بحر من الشهوات والملذات التي أدمنها كطفل أدمن اللعب بشدى أمه بعد أن يشبع ويرتوى . وطالما أحببت منه هذا السلوك الذي أشيع داخلها إحساسها الجائع بالأمومة ، ورغبته المحرقة في البنوة . ابتسمت وهي تقترب منه في حين سألت عيناه بالنداء :

— عموما أنا تحت أمرك !

دست كتفه بين ثديها فتساءل هامسا :

— وميعادك !؟

— كل شيء في الدنيا يمكن أن ينتظر إلا سيد الرجال !

ابتسم فاحتضنته . أحاط خصرها بذراعه حتى بلغا الفراش الذي أضاء بنور الشمس المتسلل من خصاص النافذة . كم أحب جسدها العارى المرمرى في هذا الضوء وهو يتقلب على الفراش ليحتويه بأنفاسه اللاهثة ونبضه الساخن وقطرات عرقه التي ألصقت أطراف خصلاتها السوداء اللامعة الناعمة السوداء ببعض أجزاء من ثديها وظهرها !! ولم يكن ليعبأ بإزاحة أطراف الخصلات عن الحلمة التي عشق طعمها وعبيرها ولملمسها البض الطرى . وها هو الآن يرتوى منها مثل تائه في صحراء محرقة وقع على ينبوع ماء يمزج النقاء بالبرودة ، إن كان ينبوع كافور ساخنا ملتبها ، فإن برد الراحة ونقاء النفس المضطربة في انتظاره . في تلك اللحظات الأزلية الأبدية كان نداء الأبوة داخله يتلاشى بين ذراعها وساقها ، أما هي فنداء الأمومة كان يتحول إلى صراخ في أذنيها ولولا قدرتها الفائقة على التحكم في نفسها وجسدها لطرحت أرضا ! كان ذهنها ينطلق عبر عشرين عاما إلى ذلك الذئب الصغير القابع في

فراشه في الشقة القديمة المطلة على نيل النيل ، والذي حرمها بجبهه وتردده  
من نعمة الإنجاب بعد ليلة الاجهاض الطويل !  
استرخى كافور إلى جوارها فأغرقت وجهه بالقبلات حتى أغمض  
عينه كمن استغرق في ثبات عميق . جرت عارية إلى الحمام حيث  
ملأت البانيو بماء ساخن وأغرقت نفسها فيه مستمتعة بمداعبة أمواجه  
الرقيقة المترجة بعطر الصابون ورغاويه . تذكرت ميعادها فخرجت  
منه كحورية ممشوقة من بين الأمواج لتجفف جسدها بسرعة وتمرع إلى  
غرفة نومها حيث كان كافور يغط في نومه كطفل ارتسمت على وجهه  
بقايا ابتسامة سعيدة !

تفنت في تجميل وجهها الذي بدا مشرقا في المرأة لأول مرة منذ  
الخلل المشؤوم ، وارتدت قطعتين سوداوين في حجم الكف ، التفت  
إحداها حول ثديها والأخرى حول رديها ، وفوقهما فستان أصفر في  
لون الكهرمان ، في حين تركت شلالات شعرها السوداء تنهر على  
كتفيا وظهرها . وضعت في قدميها حذاء أصفر لامعا ، وفي ذراعها  
حقيبة صغيرة من نوعه . فتحت زجاجة عطر باريسية ، دهنت خلف  
أذنيها وحول عنقها ففاحت الغرفة بأريج زاد من اتساع بقايا الابتسامة على  
وجه كافور . استدارت مرتين أمام المرأة مستمتعة بقوامها الرشيق من  
كل زواياها ! كانت ساحرة فاتنة مثل نجوم الشاشة الصغيرة الملونة  
والأفلام الخاصة التي أدمن كافور مشاهدتها مرارا وتكرارا !

أسرعت بإيقاع حداثها الحاد الرقيق لتفتح الباب وتهبط على درجات  
سلم الرخامية إلى حيث عربتها الحمراء الفاخرة في الجراج . أدارتها  
انطلقت بها بخذاء النيل الذي افترشته شمس الحريف الحانية . انحرفت  
بسا لتخرق ميدان الروضة الذي اخترقته على قدميها في الاتجاه العكسي



يوم ذهبت لتلوذ بأعطاف الأنطى ريحانة رحمها الله . قبل كوبرى الملك الصالح لمحت صيدلية فتذكرت أقراصها المنومة والمهدئة التى نفذت . أوقفت العربى وهبطت منها لتدخل الصيدلية التى سرعان ما خرجت منها وهى تغلق حقيبتها .

كانت على وشك أن تفتح باب العربى عندما لمحت شيخا نحيلاً ضعيف البصر يخشى عبور الشارع برغم إشارة المشاة الخضراء . قررت أن تعمل خيراً فأمسكت بيده المرتعشة . انقاد لها وهو يتمم بكلمات غير واضحة ظنتها دعاء لها وهى تتأمل وجهه المتغضن . فجأة ارتعشت يدها هى الأخرى ! تذكرت وجهه ! إنه بطل أو أحد أبطال ليلة الإجهاض الطويل ، ذلك الذى التقطها حافية على الكورنيش تحت وابل المطر وفى عتمة الليلة الطويلة ليكمل ما بدأه معها بسيم ! نظرت خلفها فرأت البيت القديم المحاط بالأوحال كما هو دون أثر للسنين . تحولت الإشارة الخضراء إلى حمراء وهما فى منتصف الطريق فأوشكت على تركه وسط السيارات المنطلقة كالسهام والتى لم ترحم شيخوخة الرجل ! لكن ما ذنبه !؟ ماذا كان يمكن أن يظن بفتاة حافية بعد منتصف الليل فى ليلة كهذه !؟ يكفى أنه آواها حتى الصباح ، ولولاه لكان من الممكن أن تصاب بالتهاب رئوى ربما قضى عليها ! تشبثت بيده المرتعشة وظلت تشير بيدها الأخرى للسيارات المارقة حتى بلغت به الطوار الأخرى . ارتكز على عصاه وقال بصوت واضح هذه المرة برغم ضجيج الطريق : — لا زالت الدنيا مليئة بأولاد الحلال .. جعل الله لك فى كل خطوة سلامة !

لم ترد وإنما عادت أدراجها بمجرد توقف السيارات مرة أخرى مع إشارة المشاة الخضراء . ركبت عربتها لتعبر كوبرى الملك الصالح

ونفسها مشحونة هادرة بانفعالات صامتة صاحبة لهذا اللقاء الغريب !!  
كان من الممكن أن تلتقى بهذا الرجل عدة مرات قبل ذلك بحكم سكنهما  
في حى واحد ! لكن لم يحدث هذا إلا وهى فى طريقها لتصفية حسابها  
القديم النهائى مع بسيم ! كما حدث منذ عشرين عاما وهى مطرودة من بيته  
ليلة رأس السنة !! هل تحمل هذه الأشياء فى طياتها معنى أو أنها مجرد  
صدفة عمية ؟!

اختلطت عليها الأمور وتشابكت الخواطر المتدافعة والذكريات  
المترجمة وعلامات الاستفهام الشائخة والإجابات الغامضة الميتورة ،  
وتساقطت أوراق الخريف من الأشجار العريقة الضخمة الضاربة  
بجذورها الراسخة فى ضفة نيل مصر القديمة وبجرى العيون حيث  
انطلقت عربتها الحمراء بفكر مشتم ومشاعر سحيقة أوشكت أن  
تنحرف بها وتحتك بعربة مجاورة !

تداركت جمالات الموقف فى الحال فعادت قبضتها متحكمة فى عجلة  
القيادة . اكتشفت فى لحظة خاطفة أنها لم تعش حاضرا ولم تفكر فى  
مستقبل بقدر ما تركت أشباح الماضى تحاصرها وتضيق عليها الخناق  
حتى فقدت حياتها كل طعم لها ! صحيح أنها نجحت فى تكوين ثروة ،  
وهى الأمية الجاهلة ، لا يحلم بها حامل أعلى الدرجات العلمية !  
وانطلقت النسوة الساذجات الجاهلات لتقبيل يدها أو الانحاء لها فى  
خشوع عند السلام عليها ، لكنها فى قرارة نفسها كانت واثقة من أن  
« رزق الهبل على المجانين » وأنها مهما ارتقت فى سلم المجتمع فهى بينها وبين  
نفسها دجالة من طراز رفيع كما فضحتها ثريا أمام الجميع ! يكفى ذهول  
من حولها فى البنك عندما كانت تذهب لإيداع بعض المبالغ أو صرفها .  
كانت عيونهم تتساءل : كيف لسيدة جميلة أنيقة مثلها أن تخرج من

حقيقتها خاتمها لخم الأوراق التي تتعامل في مثل هذه المبالغ الضخمة ؟  
مما اضطرها بعد ذلك إلى ارتداء ملاءة بنت البلد حتى يتطابق مظهرها مع  
جوهرها وتراجع العيون بعيدا عنها !

كانت مستمتعة بجهلها وأميثها اللذين لم يقفا حائلا ضد طموحاتها !  
لكنها منذ ذلك الحفل المشئوم أدركت أن ظلام الجهل مهما طال وتمادى  
وتكاثف لا يمكن أن يصمد لحظة أمام نور المعرفة حتى لو كان شمعة  
مرتعشة ! كم كانت ضعيفة أمام تلك الفتاة الرقيقة الجميلة التي لم تكن  
تملك سوى سلاح الحقيقة ؟ في تلك اللحظة الرهيبة أدركت أن  
الإنسان لا يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت إذا كان قد  
نجح من قبل في خداع بعض الناس كل الوقت أو كل الناس بعض  
الوقت ! وهي التي سخرت من هذه الحقيقة عندما تجسدت أمامها في  
إحدى المسرحيات التي عرضها التلفزيون في سهرة ! في نهاية تلك  
السهرة نهضت للنوم سعيدة بقدرتها الفائقة على التلاعب بعقل ومشاعر  
جميع من تتعامل معهم !

لكنها أيقنت الآن أن خداع الآخرين ليس سوى الوجه الآخر  
لاحترام الذات الضائع ! كيف يمكن أن تحترم ذاتها وهي واثقة أن الدجل  
هو صناعتها ورأسها ؟ ! لكن ذاتها كانت قد ضاعت منذ تلك الليلة  
الرهيبة ، وظنت أن الانتقام من أضعوها هو السبيل الوحيد لإعادتها !  
وأخيرا اكتشفت أنهم أصبحوا محور حياتها في الحاضر والمستقبل حتى لو  
نجحت في الانتقام منهم وتحطيمهم الذي لن يعود عليها بفائدة إيجابية  
سوى إطفاء تلك النار التي ظلت تحرقها من الداخل طوال عشرين  
عاما ، ويبدو أنها كانت على وشك أن تحرقها كلية !  
لكن هل يمكن أن يهرب بسم بجلده هكذا كأنه لم يرتكب أية

جريمة ١؟ صحيح أنها كانت على وشك أن تخرب بيته وتضيع كل ما حاول الحرص عليه لولا ثريا التي لا بد أنها اتفقت معه بحكم أنها جارتة العريقة وبحكم اتصال بنفسج بهما للانتقام بدورها ! سطعت الحقيقة أمامها على الطريق بكل ضوءها المبهر ! إن سلاح الحقيقة الذي استخدمته ثريا ضدها ، سوف تستخدمه هي بنفس الكفاءة ضده ! لماذا تتعري هي ويظل هو متدثرا بسره القديم كأنه لم يفعل شيئا ١؟ إذا كانت جريمتها النصب والدجل والاحتيال فإن جريمته الاغتصاب والجبن والتردد ! ومع ذلك فالقانون لا يعاقب من يمارسون الزار في حين يحكم على مرتكبي الاغتصاب بالأشغال الشاقة أو حتى الإعدام ! ومع ذلك فإن شيئا داخلها يؤكد لها أنه لم يكن اغتصابا بقدر ما كان استسلاما منها بمحض إرادتها التي أوحى لها بأن جماها قادر على الصعود بها على درجات السلم الاجتماعي ، خاصة وأنها لم تكن مجرد خادمة !!

انطلقت العربة الحمراء مع إشارة المرور الخضراء في شارع القصر العيني وجماليات تحاول جمع شتات أفكارها بعد أن اقتربت من ميدان آخر معاركها مع الماضي ! تعالت دقات قلبها وهي تركن عربتها يمينا وتعبير الشارع بين العربات الخاصة والعامة المارقة بمهارة واعية حتى بلغت الطوار الآخر سعيدة بصفير الإعجاب المنطلق من بعض راكبي العربات والمتسكعين على الطوار . دخلت العمارة العريقة وسرعان ما كانت في المصعد الذي تأملت نفسها في مرآته مستمتعة بجماها الوحشي المتدفق من بشرتها البيضاء ، وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، وشعرها الأسود اللامع الفاحم المنهمر على ظهر فستانها الكهرماني . وعندما توقف المصعد ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تتذكر : جه نوال الشاحب وشعرها الناحل وقوامها الخالي من براكين الأنوثة

التأججة وكهوفها المظلمة الرطبة !

نبض صدرها مرة أخرى بدقات قلبها وهي تضغط على الجرس . فتح الباب لتجده واقفا بشحمه ولحمه ! عرفته لأول وهلة برغم أنها لم تكن تعرف أن الصلع زحف على رأسه ، وترهل جلده على عظامه برغم بقايا الكرش الهابط . بدا كهلا برغم أنه لم يتجاوز الأربعين إلا بقليل ، فهي أدري الناس بسنه الحقيقية ! سعدت لانبهاره بها لدرجة أنه لم يعرفها وظل حائرا مترددا زائغ النظرات التي تمسحت بها من أم رأسها إلى أخمص قدميها حتى نطقت باسمها القديم دون تفكير :

— جمالات !

زادت حيرته وتردده وزوغان نظراته ، فلم تعرف إذا كان هذا بسبب المفاجأة أو بسبب الخوف !؟

— أهلا وسهلا .. تفضلي !

تحرك أمامها وفتح لها باب الصالون مشيرا بيده إلى داخله :

— ستأقى المدام للقائك حالا !

واختفى !

كم صالت وجالت في هذا البيت ! لكنها لا تعرف إذا كانت ستصول وتجول هذه المرة !! كم جلست في هذا الصالون قبل بدء الحفل لتتحنى النسوة للسلام عليها أو لتقيل يدها !؟ ولذلك يجب ألا تنظ صاحبة البيت أنها جاءت للتراجع والدفاع عن نفسها ، بل قدمت للمزيد من الهجوم ووضع الأمور في نصابها ! سواء أكانت أطفاف أو حمالات !؟ فهذا لن يغير من الأمر شيئا !

خرجت من خواطرها على الباب وهو يفتح في هدوء، وتدخل نوال

مرتدية فستانا وقورا من الحرير الكحلى ، ومبتسمة في تحفظ وكبرياء لم تعهدهما فيها من قبل . نهضت جمالات للسلام عليها بنفس التحفظ وبكبرياء أشد . ران الصمت المتوتر الحرج مع جلوسهما متواجهتين ! قطعت نوال بنبرات واضحة رزينة :

— تحت أمرك فيما جئت من أجله !

إنها لم ترحب بها على الوجه اللائق ! فى الطريق إليها كانت جمالات على وشك أن تفقد الرغبة فى شن هجومها المزمع واعتبار زيارتها بهدف استمرار أواصر الصداقة خاصة وأنها لم تكن مدركة لمدى تأثير نوال بموقف ثريا ، لكن هذا التحفظ الذى يقترب من تعالى حفزها إلى الهجوم بل والانتقام ، حتى ولو عرف كافور سرها من هذا البيت ! إذ بدا هو أيضا فى تلك اللحظة حلقة من أغلال الماضى التى ترسف فيها دون أن تدري ! فكل ما يملكه فى هذه الدنيا ثروة أمه بما فيها الفيلا الصفراء ، أما الشخصية القوية ، والمهارة الحرفية والتخطيط للمستقبل فأشياء لا علاقة له بها !

لاحظت نوال شرودها وترددها لأول مرة :

— قلت إنه موضوع شخصى لا يتعلق بالزار !؟

استدركت جمالات وشرعت فى استعادة زمام الأمور :

— سبق لىبنفسج أن وشت بى عندكم !؟

قبل أن تستأنف برز التحدى فى كلمات نوال :

— لم تذكر سوى الحقيقة التى لم أصدقها فى ذلك الوقت بل ونهرتها

واتهمتها بعدم الوفاء !!

وضعت جمالات ساقا على ساق فى لفنة متعالية :

— إنها لم تقل كل الحقيقة ! ولذلك جئت اليوم لإكالمها حتى يعرف

الجميع كل شيء عن الجميع !

لم تصدم نوال أو تهتز كما توقعت جمالات التي كتبت حنقها داخلها  
وهي تستمع إلى كلماتها الهادئة إلى حد البرود :  
— أنا على استعداد لسماع أى شيء !

ألقت جمالات بالسؤال في وجهها :

— أتعرفين أن أبى قريب لوالد زوجك ؟ فهو ابن عم له ؟!

أجابت نوال بنفس الهدوء البارد :

— حكيت لى بنفسج عن هذا الموضوع ! كما حكيت لى أنك عشت

فى بيته حوالى ثلاث سنوات !!

— لكنها لم تحك لك عما كان بينى وبين زوجك !! فهذا سر لم

يخرج إلى النور منذ عشرين عاما وظل محصورا بينى وبين زوجك وأمه  
وأبيه !

وضعت نوال ساقا على ساق هي الأخرى :

— أتقصدين تورطكما فى علاقة حب دون خطبة أو زواج ؟!

كانت كل متعة جمالات وتشفيها أنها جاءت لتلقى بالحقيقة المروعة فى  
وجه هذه الشاحبة التافهة ، فأذ بالصدمة تأتى منها بهذا البرود المتعالى  
المقيت ، وينقلب الموقف رأسا على عقب . ومع ذلك فهى كفيفة  
باستعادة زمام الأمور اعتمادا على دهائها :

— وهل حكيت لك بنفسج عن هذا أيضا ؟!

كانت جمالات تمنى أن تجيب بالإيجاب حتى تثبت لها كذبها لعدم

معرفتها بالسر ، لكن نوال ألقت فى وجهها بالمفاجأة التالية :

— أبداً .. لقد حكى لى بسم كل شيء عن هذه العلاقة !

قررت جمالات مواصلة الزحف برغم ذهبها :

— وهل حكى لك عن اعتدائه على ولم أكن قد بلغت سن الرشد

بعد ١٩

أشاحت نوال بوجهها تجاه النافذة المفتوحة :

— لا تصورى الأمر على أنه اعتداء .. فقد كان بسيم في سن المراهقة

والطيش ولم يفعل سوى ما يفعله الكثيرون مع الخاديات !!

قاطعتها جمالات في حدة بالغة :

— لا تنسى أنني كنت بمثابة ابنة عم له !!

استأنفت نوال كأنها لم تسمع شيئاً :

— كما أن أى شاب لا يمكنه الحصول على ما يرغبه في أية فتاة .. إلا

إذا كانت هي على استعداد لمنحه إياه !

— ولنفرض أنني منحته هذا برغبتي !! هل يكون جزائي الضرب

حتى الإجهاض الذى تسبب بعد ذلك فى عقمى كما سمعت بأذنيك من

ثريا ١٩

— هل اعتدى هو بالضرب عليك ١٩

— ترك ركلات أبيه ولكماته تنهال على نتيجة لفعلته التى أنكرها

تماما فى جبن لا مثيل له !

— إذا .. كان إجهاضك مسئولية أبيه فقط ١٩

تريد هذه الشاحبة النحيله التافهه أن تمارس مهمه القاضى العادل ١٩

من أين أنت بهذه السلطه والعجرفة وهى التى لا تساوى بصله فى سوق

النساء ١٩

— هل تقصدين بهذا أن القانون لن يمس زوجك من قريب أو

بعيد ١٩

— مثلما تمارسين الزار تحت سمع القانون وبصره !!



— الآن تتكلمين عن الزار هكذا ؟!

— الحمد لله الذى أزال الفشاوة عن عيني !

أنزلت جمالات ساقها وأبعدت ظهرها عن مسند المقعد :

— هل يمكن أن تنتقمى منى بإفشاء هذا السر عند زوجى ؟!

— إذا كان الجهل هو الجريمة التى ارتكبتها فى الماضى .. فخراب

اليوت لا يمكن أن يكون الجريمة التى سأرتكبها فى المستقبل !!

شعرت جمالات بصدقها الشديد فى كل كلمة نطقت بها ! وفى

الوقت نفسه أدركت ما ترمى إليه « بخراب اليوت » :

— أحيانا تدفعنا قوة غامضة داخلنا إلى القيام بأعمال نعرف مقدما

أنها ليست خيرة !!

— لعل ما يعزىنى أنتى لم أكن أملك هذه المعرفة ! كما أنتى أكفرت الآن

عما ارتكبتة فى حق بينى وأسرقتى بالوقوف إلى جوار زوجى لبناء ما

خربته بجهل وحسن نية !! كذلك تعلمت من المحنة أنه إذا كان الله يغفر

الخطايا جميعا فمن باب أولى أن يغفر البشر لمن أخطأوا فى حقهم حتى

يمكن للحياة أن تستمر !

لم تملك جمالات سوى أن توافقها :

— فعلا .. فالانتقام نار لا يبد أن تحرق صاحبها فى النهاية !

— وتأكدى أنه إذا كان الطيب قد قال لك أن إجهاضك القديم قد

يكون سبب عقمك الحالى .. فإن إرادة الله فوق الجميع .. وإذا كسب

لك الذرية فلا بد أن تنجى فى النهاية !

سقطت هذه الكلمات على قلبها المشتعل ، مثل قطرات مطر هبطت

على أرض أو شك الجفاف أن يحيلها إلى صحراء محرقة ! هل يمكن أن تأتى

الحكمة أخيراً على لسان امرأة مثل نوال ! كم تغيرت وأصبحت مثيرة للاحترام !؟ أطرقت برأسها في حزن :  
— أحيانا يظل الإنسان طوال عمره يكفر عن خطأ ارتكبه في لحظة طيش !!

— واشترطنا معك في دفع الثمن .. بسيم من صحته التي تكالبت عليها الأمراض .. وأنا من ثروة أبي التي أفنى عمره في جمعها .. وابني حازم من حياته التي كان على وشك أن يفقدها ! ومع ذلك فالمستقبل هو قضيتنا وليس الماضي على حد قول ثريا التي تعلمت على يديها الكثير منذ ذلك الحفل !

— برغم صغر سنها !؟

— العلم نور .. فالعمر عندها يقاس بالمعرفة وليس بالسنين !  
كم تمننت جمالات أن تتعلم !؟ على الأقل القراءة والكتابة ! لكن دوامة الحياة ، وشهوة الانتقام ، وشبح الماضي ، والخوف من المستقبل ، كل هذا لم يترك لها لحظة تفكر في حياتها التي جرفتها دوامة الأحداث وهي التي ظنت أنها صاغتها على هواها منذ البداية ! كم لسعها الندم عندما كان كافور يتعالى عليها وهو يقرأ لها الجريدة ، وخاصة صفحة الحوادث !؟ كم أصيب قلبها بغصة وهي تقلب صفحات المجلات بعينها فلا تعي سوى الصور !؟ حتى إعلانات الشوارع لم تفهم منها سوى ما جاء على شاشة التليفزيون ! فإذا كانت بضاعتها الطقوس والطلاسم فإن القراءة والكتابة اللتين تجيدهما سوسن ابنة بنفسج ، هما بالنسبة لها طقوس وطلاسم !!

لاحظت نوال شرودها وهي تنظر عبر النافذة المفتوحة التي وقفت على حافتها عصفورة صغيرة في منقارها عود من القش . نظرت إليها

بعينها التي تشبه خرزة سوداء صغيرة ثم انطلقت إلى عمود نور بعيد .  
استأنفت نوال حديثها حتى لا يسود الصمت أطول من هذا :

— أرجو ألا أكون قد ضايقتك بكلامي هذا !

استدركت جمالات في ارتياح لوداعة نوال العائدة والتي ذكرتها بأيام  
سطوتها التي يبدو أنها أصبحت غابرة :

— أبدأ .. يجب ألا تغضب الحقيقة أحدا .. فقد آن الأوان لمواجهتها

مهما كانت مرة !!

— ولينحك الله القدرة على هذا .. ونحن في خدمتك على أية

حال !!

ابتسمت جمالات لأول مرة ولكن في حزن :

— على كل حال .. نحن أهل والظفر لا يخرج من اللحم .. وربما

استترت برأيكم إذا تركت الزار وحاولت دخول ميدان التجارة !

نهضت جمالات ومعها نوال التي يبدو أنها ارتاحت لانتهاء الزيارة

الحرجة . مدت جمالات يدها فشدت عليها :

— وفقك الله .. وبيتنا دائما مفتوح لك !!

كان لسانها على وشك أن يفلت بقولها إنه البيت الذي شهدت فيه

أجمل الليالي ، لكنها شددت على يدها بحرارة :

— شكرا !! إلى اللقاء !!

وتحركت مندفعة نحو الباب ففتحته لتخرج منه وفي أعقابها نوال التي

فوجئت بزوجها يتلکأ في الصلاة بعينين متألقتين على غير العادة ، وكأنه

يحاول أن يسترق النظر إلى جمالات التي سلمت عليه في حين كانت نوال

تتابع بدقة لقاء اليدين والعينين :

— فرصة سعيدة للغاية يا بسم بك .. نراك خير !

ثم بدت وكأنها تجذب يدها من برائن يده . سبقها حيث فتح لها باب الشقة لتخرج وابتسامة عريضة عادت إلى شفيتها العجريت الغليظتين . ابتسامة كانت على وشك أن تدفع بنوال لتقذف بها على درجات السلم . تعمدت الوقوف أمام باب المصعد لتستعرض جسدها الذى اختفت براكينه وكهوفه ووديانه داخل فستانها الكهرمانى الضيق ! بمجرد وصول المصعد أسرع بفتح بابه لها . ولم تبدأ دقات قلب نوال إلا باختفائها داخله وهبوطه الذى تمت أن يصل بها إلى سابع أرض !

خرجت جمالات إلى شمس الشارع الساطعة سعيدة باللحظات الأخيرة التى أكدت لها أن سحر الأنوثة أقوى ألف مرة من سحر الزار ! إنه سحر لا يخيب مفعوله ولا يضعف من أثره العلم . يكفى أنها تملك ما لا تملكه نوال التى ظنت فى يوم من الأيام أنها ملكت كل شيء ! خاصة عندما كسبت الجولة الأولى بزواجها من بسيم ، لكن جمالات كسبت كل جولات الزار لولا دخول ثريا إلى الحلقة وهزيمتها لها بالضربة القاضية ! أما الجولة الأخيرة التى لم تمض عليها سوى لحظات فقد كسبتها بطريقة لم تخطر لها على بال !!

عبرت جمالات الشارع إلى حيث كانت سيارتها واقفة . ركبها وكلمات قديمة للأسطى ريحانة تلح على وجدانها . انطلقت بها يسارا لتخترق شوارع جاردن سبتى منحرفة يسارا مرة أخرى لتسير بحذاء النيل . كانت أحوال الأسطى ريحانة الاقتصادية قد تدهورت إلى حد ما فى أعقاب الوحدة بين مصر وسوريا ، وتطبيق القوانين الاشتراكية ، وانتشار المسارح ودور اللهو ، وإقبال الجميع على الالتحاق بالجامعات ! قل عدد المقبلين على حفلات الزار إلى الحد الذى فكرت فيه الأسطى ريحانة فى تغيير صنعتها وافتتاح محل للعطارة فى الغورية يتعلم فيه ابنها

كافور فنون التجارة ! لكنها سرعان ما عدلت عن فكرتها بوقوع نكسة يونيو الشهيرة وعودة جميع الزبائن إلى ممارسة الزار هربا من الكابوس ! ومع تطبيق سياسة الانفتاح في أعقاب حرب أكتوبر ارتفعت طبقات جديدة ذات دخل اقتصادى عجيب غامض وإيمان عميق بالأسياذ والعمارة مما جعل الزار كالدجاجة التى تبيض ذهباً ! ومع ذلك كانت الأسطى ربحانة تؤكد لها دائما أن دوام الحال من المحال ! فمن يملك المال اليوم قد لا يملكه غدا ، ومن يؤمن بالزار اليوم قد يفقد إيمانه به غدا ، وإذا ظل ثابتا عليه فمن المستبعد أن يظل أبناؤه وبناته على نفس الشبات ! فالتعليم ينتشر لدرجة أن البعض أصبح يقارن الزار بالنصب والدجل والاحتيال بعد أن كانت الكودية شخصية محترمة لدرجة التقديس فى الأزمنة الغابرة ! ولا بد أن يأتي اليوم الذى تندثر فيه مهنة الكودية مثل مهن أخرى سبقتها إلى الاندثار كالأدبائى والطرايشى والسقا ! إن عجلة الزمن لا ترحم من لا يعمل لها حسابا !

توقفت العربة الفاخرة مع الإشارة الحمراء . إن ما فعلته ثريا كان جرس إنذار لما يمكن أن يحدث بعد ذلك على مستوى جماعى وليس على مستوى فردى ! فهل يمكن أن تسبق الزمن قبل أن تطويها عجلته ؟!

انطلقت العربة مع الإشارة الخضراء بسرعة أعلى ، وعلامات استفهام وحيرة تتراقص بامتداد الطريق الفسيح المنير بضوء الشمس المبهى : هل يمكن أن تغير مجرى حياتها بهذه السرعة والبساطة ؟! أو تمسك بالعصا من منتصفها بحيث تجمع بين الزار والتجارة ثم تتخلى عن الزار تدريجا مع ازدهار تجارتها ؟! إنه لشيء جميل أو حلم قديم أن تملك عقارا ، وفى إمكانها الآن أن تملك عملا للخطارة يدر عليها ذهباً ! فهى تجارة رابحة جعلت من أصحابها مليونيرات ، كما أنها تعرف معظم أسرارها من خلال الزار وطلباته ، كذلك فهى حرفة

عاشت آلاف السنين وغير مرتبة بزمن معين . وسيعمل كافور عندها أخيرا بعد أن ظلت طوال عمرها تعمل عند أمه ثم عنده بحكم ثروتها التي آلت كلها إليه ! وبدلا من أن يظل عاطلا بالوراثة ولا يفكر إلا في المولود الذى لن يجيء ، فإنه سيظل رهين المحل طوال اليوم ، ولكن تحت إشرافها ورهن إشارتها !

هل كتب لها أخيرا أن ترسو على بر وتستقر على صخرة راسخة !؟ لا تعرف ! كل ما تعرفه أن البيت الذى خلفته الآن وراء ظهرها قد تركت معه الماضى كله ! لم يعد بذى معنى فى حياتها ، بل إن شيئا ما فى داخلها يؤكد لها حماقتها التى دفعتها إلى جعله محورا لوجودها وجعلتها سجينه رغبتها فى الانتقام ! فمهما حدث فى الماضى ، فإن ما تملكه حقا ويمكنها التصرف فيه هو حاضرها ومستقبلها ! أما تلك الليلة الكئيبة فقد عاشت فى وجدانها وفكرها لأنها حرصت على إحيائها باستمرار دون مبرر سوى الانتقام الغيبى ! والآن تتوارى الليلة خلفها كلما انطلقت العربية !

مرقت العربية بجوار مجرى العيون وتحت ظلال الأشجار العتيقة العريقة الضاربة بجذورها الراسخة تحت طبقات الحجر والأسفلت . ستطلب من كافور أن يعلمها القراءة والكتابة قبل أن يعرف شيئا عن مشروع محل العطار . عبرت كوبرى الملك الصالح وابتسامه على وجهها عندما وقعت عينها على البيت القديم المطل على الكوبرى فتذكرت سلمه الحجرى الفسح ورائحة الرطوبة العفنة التى تنبعث من بثره ! ومع ذلك اتسعت ابتسامتها ! كانت إشارة المرور خضراء فواصلت العربية انطلاقها مخترة ميدان الروضة وقد بدا الطريق فسيحا مضيئا وعجلات العربية تمسح فى طياتها علامات الاستفهام والحيرة برغم تساؤل ملح ملك عليها شعورها : هل يمكن أن يولد الإنسان أكثر من مرة !؟

